أدب المقاومة

في فلسطين المحتلة

Digitized by Birzeit University Library

DS 4290

غسان كنفاني

أدب المقاومة

في فلسطين المحتلة

١٩٤٨ - ١٩٦٦

مكتبة كلية بيرزيت
٥٢/١٠
BIRZEIT COLLEGE LIBRARY

منشورات دار الآداب - بيروت

Digitized by Birzeit University Library

مقدّمة

تفتقر هذه الدراسة الى عنصر أساسي يتوقف عليه عـــادة جزء جوهري من نجاح البحث ، وهو وفرة المصادر .

لقد كانت محاولات تأريخ آداب المقاومة لدى شعب من الشعوب تتم عادة بعد التحرير، وذلك لأسباب بديهية لا داعي للدخول في تفاصيلها ، ولكن بالنسبة لأدب المقاومة في فلسطين المحتلة فإن الضرورة تقتضي أن يكون القارىء العربي عموماً ، والنـازح الفلسطيني خصوصاً ، على اطلاع مستمر عليها ، لأنهـا – في الأساس – تتناوله بالذات وتخاطب فيه مـا تخاطبه في عرب الأرض المحتلة ، وتنطلق من حوافز هي بالذات حوافزه ، وتتعامل ، دونما شك ، مع صلب قضيته .

شعوراً بمثل هذه الضرورة كان لا بـــد من التصدي لدراسة أدب المقاومة العربي في فلسطين ، هذا الأدب الذي ظل مجهولاً بالنسبة لنـــا طوال سنوات المنفى ، بالرغم من أنه يشكل الجانب الأكثر إشراقاً في كفاح الشعب المغلوب على أمره .

إن تعقّب الإنتاج الأدبي لعرب الأرض المحتلة هو عمـل من أصعب الأعمال التي يمكن لباحث أن يتصدى لها ، وهذه الإشارة ليست تبريراً

Digitized by Birzeit University Library

لشيء ولكنها اعتذار عن أي تقصير .

إن أي بحث من هذا النوع لا يمكن أن يكتمل إلا إذا كان الباحث في داخل حركة المقاومة ذاتها في الأرض المحتلة ، يأخذ استشهاداته من المكان الذي تولد فيه وتعيش وتنتشر : شفاه الجماهير ..

ولما كان مثل هذا الموقع مستحيلاً الآن ، فإن النتيجة التي يمكن الاطمئنان إليها ، بعد قراءة الصفحات اللاحقة ، هي أن أدب المقاومة في الأرض المحتلة هو أكثر اتساعاً وانتشاراً وخصباً من الشواهد القليلة المسجلة هاهنا ، والتي كانت قاعدة أساسية للبحث .

إن هذه المقدمة تريد – أيضاً – الإشارة الى نقطة أخرى : ليس ثمة منهج أكاديمي فى البحث ، وقد يكون البحث مفتقراً إلى « البرود الموضوعي » الذي يعطي عادة أي موضوع نقدي قدرته على الإقناع ..

ولم يحدث هذا فقط لأننا طرف في مسألة المقاومة هذه ، ولكن أيضاً لأن الظروف الموضوعية التي ينمو فيها هذا الأدب داخل الأرض المحتلة هي ظروف شاذة ونادرة وغير خاضعة لأي مقياس .

قد يكون البحث إذن مفتقراً للمنهج الأكاديمي ، ولكنه حاول جهده أن يتمسك بأمرين جوهريين هما تذكره الدائم في معرض تقييمه لأدب المقاومة للظروف الخاصة التي استولدته ، وإيمانه الذي لا يتزعزع – وهو « إيمان موضوعي » في نهاية المطاف – بقضية أدب المقاومة التي تستولد بالتالي التزامات ومهمات لا يمكن لهذا الأدب أن يكون إذا لم يكرّسها يومياً وفي كل حرف .

هذه الالتزامات التي تجعل شاعراً من الأرض المحتلة يقول :

Digitized by Birzeit University Library

« .. وأنت صديقتي العذراء
ما دامت أغانينا
سيوفاً حين نشرعها ..
وأنت وفية كالقمح
ما دامت أغانينا
سماداً حين نزرعها ! »

إن هـــذا التلخيص لالتزامات أدب المقاومة ومهماته ، على صعيد جماهيري وصعيد شخصي في آن واحد ، هو دليل على اختيار ذاتي .

ولأنه كذلك فقد التزم البحث باحترام ذلك الاختيار .

غ . ك .

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الأول

أدبُ المقاوَمة بعدَ الكارثة

حين وقعت كارثةُ فلسطين عام ١٩٤٨ لم تخلّف تغييراً جذرياً في المجتمع العربي هنـاك من حيث العدد فقط، ولكنها أحدثت أيضاً هزةً جوهرية في التركيب الاجتماعي لعرب فلسطين المحتلة .

فأكثر من ثلاثـــة أرباع الـ ٢٠٠ الف عربي[١] الذين بقوا يومذاك في فلسطين بعد الاحتلال الصهيوني كانوا من سكان القرى . أما سكانُ المدن فقد هجرت الغالبيـةُ الساحقةُ منهم فلسطين إبان حرب الـ ١٩٤٨ أو بعدها بقليل ، وأحدث هـذا الواقع اهتزازاً صاخباً في جوهر المجتمع العربي هناك، ذلك إن المدن لم تكن فقط مركز القيادة السياسية ولكن أيضاً ، كما في معظم الأحوال ، مركز القيادة الفكرية الأساسي .

وهكذا فحينأحكمَ الاغتصابُ الإسرائيلي طوقَ الحكمِ العسكري والحصار والقوانين القمعية على التجمعات العربية في الريف ، خصوصاًفي

---

١ – عدد العرب الآن في الأرض المحتلة رسميـاً ٢٦٢ الف عربي - أي حوالي ١١٪ من مجموع السكان .

Digitized by Birzeit University Library

الجليل والمثلث والنقب، كان الجو مهيأً له تماماً ليس لتحقيق عملية كبح خطيرة لأي تيّار سياسي أو أدبي ينبثق من هناك فقط ، ولكن أيضاً لزرع بذورٍ في تلك التربة البكر لتياراتٍ مشبوهة تدخل ضمن الحياة الصهيونية الأدبية والسياسية في الأرض المحتلة .

قبل كارثـة ١٩٤٨ كان الأدبُ العربي في فلسطين يشكل رافداً له قيمتـُه في ذلك التيار الذي شغلَ النصفَ الأول من هـذا القرن متخذاً من القاهرة بالذات مركزاً لانطلاقه ولانصبابه ، متأثراً بالأقلام المصرية واللبنانية والسورية التي كانت في ذلك الحين رائدة ثورية لمرحلة جديدة خاضها الأدب العربي بعـد نوم طويل – وحتى الادباء الفلسطينيون البارزون ظلوا لفترة طويـلة يدينون بشهرتهم الى العواصم العربية التي كانت تفتح لهم صدورها وتتبناهم . لقد أسهمت عوامل كثيرة ليس هنا مجالُ تعدادها في حرمان فلسطين أدبياً من المركز الذي كانت تتمتع به سياسياً ، ورغم ذلك فقد حقق الأدبُ العربي هناك ، والذي ثبت فيما بعد انه كان رائداً قومياً من الطراز الأول ، ازدهارَه اللائق .

وبعد النكبة لعبت الطلائع الفلسطينية المثقفة دوراً بارزاً في منافيها ونجحت رغم كل مـا يقال في وضع أسس عريضة ، وفي وقت قصير نسبياً ، لأدب عربي يمكن وصفـُه بادب المنفى أكثر مما ينطبق عليه وصفُ الأدب الفلسطيني أو ادبِ اللجوء ، وكان الشعر بالذات هـو الرائد في هذا المجال ؛ وخلال سنوات المنفى الماضية حدث تطور نوعي بارز في طبيعـة ذلك الأدب ؛ فبعد النكبة مباشرة ، كما هو متوقع ، خيّم الصمت أولاً كأنما هو نتيجة الذهول،ثم انفجر شعر حماسي صاخب كأنه يتجاوب مع الضمير الشعبي الذي ، إذ صحا من الذهول ، لجأ الى عدم التصديق ؛ ولكن هذا الأدب الذي كان يُكتب في المنفى لم يكن يخضع لهذا النوع من التأثر فقط – نعني التأثر بالضمير الشعبي – ولكنه

Digitized by Birzeit University Library

كان يخضع أيضاً للتيارات الأدبية العربيـــة والأجنبية التي كانت تفعل فعلها العميق والسريع في طبيعة حياتنا الأدبية – ونتيجة لهـذا التأثر المزدوج خضع أدب المنفى لتغير نوعي ، في المضمون والشكل : فرضت التيارات الحديثة شخصيتَها على التكنيك الأدبي ، وفرضت المرحـلةُ التي اجتازها الضمير الشعبي نفسها على المضمون : فبعد الشعر الحماسي الصاخب الذي شهدته أوائـــلُ الخمسينات حطم شعراءُ المنفى – على الأخص – العمود التقليدي من حيث الشكل ، وغـادروا الحماس الذي وجدوا فيـــه ، لمرحلة من المراحل ، تكذيباً شخصياً للكارثة الى نوع فريد من الحزن العميق .

مقابل هذا، ما الذي حدث على صعيد الأدب العربي في فلسطين المحتلة ذاتها ؟

إن المعطيات هنا تختلف جذرياً .

فحين سقطت فلسطين في يـد العدو لم يكن قـــد تبقى تقريباً في فلسطين المحتلة أي محور ثقافي عربي يمكن أن يشكل نواة لنوع جديـد من البعث الأدبي ، وكان جيل كامل من المثقفين ، أو بالأحرى أجيـال من المثقفين ، قد غادرت فلسطين الى المنفى – ولم يبق ثمـــة إلا مجتمعٌ عربيٌ قرويٌ في غالبيته الساحقـــة ، يخضع لحصار سياسي واجتماعي وثقافي يندر وجود ما يماثله في العالم .

إن كلمة « حصار ثقافي » لا توضح المقصود منها تماماً إلا إذا دخلنا الى صميم ما تعنيه في الواقع :

– أولاً : في الأساس كان القطـــاعُ الأكبر من العرب الذين بقوا في الأرض المحتـــلة يفتقرون ، بحكم وضعهم الاجتماعي ، الى المستوى الثقافي الذي يفرخ في العـــادة جيلاً من الكتّاب والفنانين .

Digitized by Birzeit University Library

– ثانياً : انقلبت المدنُ المجاورة التي كانت تحتضن الموهوبين القادمين من الريف وتفتح لهم أبوابها للدخول ونوافذها للمعرفة الى مدن يهودية محرّمة وعدّوة .

– ثالثاً : انتصب جدار من المقاطعة الثقافيـة القسرية مـع الأدب العربي في عواصمه فانقطع عرب الأرض المحتلة عن مواكبة التيارات الحديثة وتبادل التأثير معها .

– رابعاً : فرض الحكم العسكري الاغتصابي نوع الإنتـاج الأدبي المطلوب ذيوُعه وشيوُعه وهو على أي حـال ليس النوع الذي يريد عرب الأرض المحتلة إنتاجه .

– خامساً : محدوديةُ وسائل النشر وخضوعها من ناحية لمراقبة السلطة ومن ناحية أخرى لتمويل الأحزاب الصهيونية التي تشترط عند النشر نوعاً هو غير النوع الذي يعبر حقاً عمـا يريده عرب الأرض المحتلة .

– سادساً : ضعفُ مستوى إتقـانِ اللغاتِ الأجنبية في أوساط عرب الأرض المحتلة ، وخصوصاً الريف ، أدى الى انقطاعٍ شبه كامل عن حركة الانتاج العالمي وتأثيراتها .

* * *

إن هذه النقاط الست توضح المقصود ، إيجازاً ، من كلمتي « حصار ثقافي » وينبغي وضعها في الاعتبار عند إجراء أي عرض للانتاج العربي في الأرض المحتلة الذي استطاع – رغم هذا كله – ألا يكون إلا أدبـاً مقاوماً .

Digitized by Birzeit University Library

في هذا الجو من الحصار يجب أن نتوقع أن يكون الشعر هو السبّاق في توجيه نداء المقاومة ، ذلك أنه يستطيع أن ينتشر دون أن يطبع ، وأن ينتقل من لسان الى لسان .. وقد فرضت هذه الضرورة مـــا هو أكثر أهمية من انتاج الشعر فقط ، فرضت أسلوباً معيناً في هذا الإنتاج هو الالتزام بالعمود التقليدي الذي يحمل استعداداً أكثر لسهولةالتداول، من ناحية ، ولتلبية الحرارة العاطفية المطلوبة من ناحية أخرى .

إذا اعتمدنا المقاييس التكنيكية المعتمدة الآن في العواصم العربيـة فإن ما أنتج من الشعر العربي في الأرض المحتلة هو إنتـــاج ، من حيث الشكل على الأقل ، متخلف ، وملتزم تماماً بعروض الخليل التقليدي ، ولكن الأحكام النقديـــة تضحي بلا معنى إذا جُرِّدت عن الظروف الموضوعية المحيطـة بعملية الإنتاج الأدبي : ان الشعر الحديث الذي نراه الآن هو أقل قدرة على الانتشار كأدب هو من ضرورات المقاومة ، من الشعر التقليدي ، ثم ان الانقطاع شبـــه الكامل الحادث بين حركة الأدب العربي المتقدمـــة في العواصم العربيـــة ، وحركة الأدب العربي المحاصرة كلياً في الأرض المحتلة يحول دون أن تأخذ تجربة الشعر الحديث مداها هناك .

الى جانب الشعر الفصيح الذي قدم نفسه ملتزماً بالصيغ التقليدية ، ظل الشعر الشعبي قلعة المقاومة التي لا تهدم .

ودور الشعر الشعبي في حياة فلسطين منذ العشرينات دور بارز جداً؛ والواقع إن الفلسطينيين هم الذين نقلوا الى منافيهم الأهازيج والسحجات التي لا تكاد تخلو منها مظاهرة وطنية الآن في المشرق العربي ، وقليل من الفلسطينيين من لا يعرف تلك القصيدة الشعبية النادرة التي خلفها لنـــا مناضل فلسطيني مجهول شنق في ١٩٣٦ والتي ما لبثت أن أضحت صلاة

Digitized by Birzeit University Library

فلسطينية في طول الأرياف وعرضها .

كان ذلك المناضل ينتظر تنفيذ قرار الشنق في الصباح حين كتب :

يا ليل ، خلّي الأسير تا يكمل نواحو
راح يفيق الفجر ويرفرف جناحو
تا يتمرجح المشنوق في هبة رياحو
شمل الحبايب ضاع وتكسروا قداحو

* * *

يا ليل وقف تاقضّي كل حسراتي
يمكن نسيت مين أنا
ونسيت آهاتي
يا حيف ! كيف انقضت بيديك ساعاتي ؟

* * *

لا تظن دمعي خوف ، دمعي على وطاني
وعا كمشة زغاليل بالبيت جوعاني
مين راح يطعمها بعدي ؟
وإخواني تنين قبلي شباب عالمشنقة راحو ؟

* * *

وبكرة مرتي كيف راح تقضي نهارها ؟
ويلها عليّ أو ويلها على صغارها !
يا ريتني خليت في ايدها سوارها
يوم الدعتني الحرب تا اشتري سلاحها !

Digitized by Birzeit University Library

* * *

وقد ظل الأدب الشعبي بعد سقوط فلسطين عام ١٩٤٨ هو المكان الذي عبر فيه الشعب المغلوب على أمره عن أشواقه ؛ ويبدو إنه حين كانت تتحول الأعراس في الجليل الى مظاهرات عنف تندفع من تحت لسان القوّالين والشعراء الشعبيين لم يكن بوسع سلطات الاحتلال الصهيوني إلا أن تفتح النار على المتظاهرين، وقد اضطرت هذه السلطات فيما بعد الى تقديم عدد كبير من القوّالين الى الحاكم العسكري، وأن تضع رقابة صارمة على تحركاتهم ..

ورغم ذلك فإن الكلمة تفعل أكثر من فعل النار وتستطيع أن تخترق حصارها، ففي أيار ١٩٥٨ اشتبك متظاهرون عرب في الناصرة مع شرطة العدو، وتطور الاشتباك الى سقوط قتلى، ولكن المتظاهرين الذين كانوا يشدون أكتافهم الى بعضها اندفعوا نحو صفوف الشرطة فمزقوها ودحرجوها على الطريق ، ومنذ ذاك تفتحت في الجليل أزهار اهزوجة جديدة :

.. والناصرة ركن الجليل فيكِ البوليس مدحولي
أرض العروبة تحررتْ دايان شيّل وارحلِ
إخوانِنا في بور سعيد إلهُمْ تاريخ مسجلي
لو وقعتْ سابع سما عن أرضنا ما بنرحلِ

ويتجاوب الشعر الشعبي في الأرض المحتلة – كما يحدث للشعر الفصيح كما سنرى – تجاوباً مذهلاً مع الأوضاع والحركات العربية. فالأبيات التي تأتي وراء الإهزوجة التي ذكرناها ، حين يتغير اللحن الجماعي ، تقول :

بن بللا أكبر زعيم كرسي التحرر اعتلي
يا غرب شو نابك ملعدوان غير الذل والبهدله

Digitized by Birzeit University Library

وحينصدرت أوامر موشيه دايان، الذي كان آنذاك وزيراً للزراعة، بمصادرة خمسة آلاف دونم من الأراضي العربيـة في قرى نحف والبعنة ودير الأسد ، في منطقة اسمها الشاغور ، كانت أهزوجـة أخرى تقود الصدام الدموي الذي حدث يومذاك :

نادى المنـادي في الجليل — أرض العروبـة للعرب
شاغورنا مالـك مثيل — وترابك أغلى من الذهب
وبوحـدة رجال الشاغور — أمر المصـادرة انشطب
دايان امـرك مستحيل — بالوحدة راح ينشطب

وتأتي ، من ثم ، السحجة التقليدية :

هبّتِ النار والبارودِ غنّى
تسلم لينا يا بو خالد
يا حامي ظِعّنا
هبّت النار من عكا للطيرة
تسلم لينا يا بو خالد
يا حامي هالديرِة

ويتغير اللحن :

شدّ يتلك جِدْ عيتينْ بالكون منصوبَة
جِدعيّة تسبقِ هبوبَ الريح لو جاها
تسلم لينا يا بو خالد يا حامي العروبَة
لو تسمعْ رجّ الزغاليط
نوبَة على نوبَة

* * *

Digitized by Birzeit University Library

ويمضي الشعر الشعبي الى أبعـد من ذلك فيلوك في سخرية مريرة ، جارحة حتى العظم، سمعة الخونة الذين يتعاملون مع العدو، ويجعل منهم مثلا من أمثلة الانحراف الوطني يخشون ، بعـــده ، المضيّ وحدهم في الأوساط العربية .

فعن الخونة الذين خاضوا مع أشكول الانتخابات في قائمـة أعطيت اسم « المعراخ » تردد القرى العربية في الجليل والمثلث :

أمـــا اتفـــرج يا سلام عالعجـــايب والـــتام
شوفو فرسان المعـــراخ داخوا ومعلمهـــم داخ
شوفو سيف وشوفو دياب أخشاب بشكل النواب
مع جـــبر وعوض ونخله وسلـــيم وباقي الشـــله
كل من يستنى سيـــدو أشكول تيحرّك إيـــدو
مـــا شوفو يا إخوان عجـــايب تالي الزمان
زلم تجمـــع لهمـــوم مـــع الظـــالم عالمظلوم
لازم نصفـــع على طول كراكوزات ليفي أشكول!

إن الشعر الشعبي في الأرض المحتلة لم يكفّ أبداً عن القيام بدوره في المقاومة ، مستعملاً كافة الوسائل التي يستطيع الذكاء الشعبي تجنيدهـا ليجعل منها سلاحاً وقت الحاجـــة . وكثير من عرب الأرض المحتلة يعتقدون أن مصرع الشاعر الشعبي المعروف باسم حميّد في أم الفحم في أواسط الخمسينات ، وهو على رأس تجمع ، كان محاولة للوقوف في وجه آلاف من المواويل والعتابا والميجانا التي كان يزرعهـــا في طول الجليل وعرضه ضد الاغتصاب وحكم الاغتصاب .

ولكن إذا كان الشعر الشعبي يفرّخ في البراري والبيوت والأعراس والمآتم ، ويكون في غالب الأحيان إنتاجاً جماعياً يتطور كلما انتقل

Digitized by Birzeit University Library

من لسان الى آخر ، ويشكل ظاهرة ليس بالوسع مهما اعتمدت وسائل الارهاب والبطش وقفها ، وليس من الممكن العودة بها الى مصدر واحد ليحل به العقاب ويفرض عليه السكوت – إذا كان الحال هكذا مع الشعر الشعبي فإنه ليس كذلك مع الإنتاج الأدبي الفصيح .

* * *

لقد ذكرنا فيما سبق الوسائل العديدة التي يعتمدها العدو للوقوف في وجه أية محاولة للتعبير ، عن طريق الإنتاج الأدبي ، عن حقيقة مشاعر عرب الأرض المحتلة ومطالبهم .

وما دام بوسع العدو التحكم في نوع الكتب العربية التي ترغب المؤسسات الخاصة في إعادة طبعها داخل الأرض المحتلة فإنه ، بالطبع ، يستطيع أن يفرض مستوى معيناً من الإنتاج ، ومضموناً معيناً أيضاً .

وهذا الطوق الفولاذي الذي تضربه سلطات الاغتصاب حول الثقافة العربية لا يقتصر على إغراق النهم العربي للقراءة في ركام من الكتب الرخيصة والتافهة ، ومراقبة الإنتاج الأدبي العربي رقابة صارمة فقط ولكن أيضاً في محاولة الحيلولة دون نشوء جيل عربي مثقف يكون نواة لانفتاح أوسع على الآفاق الفنية المعاصرة .

فعدد[1] الطلاب العرب الثانويين في الأرض المحتلة هو حوالي ٣ بالمئة من مجموع الطلاب اليهود ، فيما تقارب نسبة العرب الذين هم في أعمار الدراسة الثانوية بالنسبة للطلاب اليهود ١٢ بالمئة على الأقل .

ويوجد مئة طالب عربي فقط في المعاهد العليا بالأرض المحتلة ، أي

---

١ – الاحصاءات رسمية وتخص عام ١٩٦٥ .

Digitized by Birzeit University Library

أقل من واحد بالمئة من مجموع الطلبة اليهود بينما كان ينبغي – اذا تحدثنا بالأرقام – أن يكونوا ١٢ بالمئة .

ورغم ذلك فالمشكلة هنا أكثر تعقيداً: فالمدارس الابتدائية العربية مرغمة على إعطاء برامج دون مستوى المدارس الابتدائية اليهودية ، وهذا وحده يحول دون عدد كبير من الطلاب العرب ودون أن يتابعوا دراساتهم الثانوية .

وحتى في المدارس الثانوية يتلقى العرب دروساً في اللغات الأجنبية دون المستوى المطلوب ، الأمر الذي يؤدي الى عجز الكثيرين منهم عن النجاح في الشهادة الثانوية ، وعجز أولئك الذين ينجحون عن اكمال دراساتهم العالية .

وقد أثبتت احصاءات رسمية ان غالبية الطلاب العرب يغادرون مدارسهم بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من أعمارهم للعمل على كسب اللقمة ، وان ٩٠ بالمئة من الطلاب العرب الذين يدخلون المرحلة الدراسية الثانوية يغادرونها الى العمل وليس الى اكمال الدراسة .

إن عشرة بالمئة فقط من مجموع الطلاب العرب ينجحون كل سنة في الشهادة الثانوية، وأولئك الذين يستطيع وضعهم الاقتصادي والاجتماعي تأهيلهم لدخول الجامعة يتعرضون الى سلسلة من الشروط تمنعهم من الدراسة في كليات معينة – أما الكليات المخصصة للدراسات الأدبية الشرقية فهي تعاني من نقص فادح في المؤهلات ، وهو نقص متعمّد .

وبعد تخرج هذه القلة القليلة فانها تتعرض لسلسلة أخرى من الاضطهادات السياسية والادارية ومحاولات مستمرة لتحطيم معنوياتها ومؤهلاتها ، وغالباً ما تكون البطالة هي المصير ، أو التوظيف ، في أحسن الحالات،

Digitized by Birzeit University Library

في مجالات غير مجالات اختصاص المتخرج .

ولقد أدى هـذا الوضع الى تحطيم مستمر لكل الأجيال الثقافيـة العربية التي كانت على وشك لعب دورها الرائد ، وكانت نوعية الثقافة العربية المفروضة على السوق العربية تعمل، من جهتها، في تحطيم المستوى الثقافي العربي من ناحية أخرى .

إن الوضع الثقافي العربي في الأرض المحتلة يخضع دائماً لمحاولات يهودية مستمرة لجر المثقفين العرب الى داخـل الدائرة الصهيونية ـ ولا يهم السلطات الإسرائيلية أن ينتسب المثقف العربي الى المعارضين الصهاينـة أو الى الموالين الصهاينة ما دام يصدر عن قاعدة غير الشخصية العربية .

وفي سبيل ذلك فهي تسمح للصحف أن تصدر بالعربية ، إذا كانت ترتبط بمؤسسة صهيونية ، وتسمح للكتب الصادرة في العواصم العربيـة أن يعـاد طبعها في الأرض المحتلة إذا لم تكن تتعامل مع مسألة القومية العربية .

وأكثر من ذلك فهي تشجع اليهود القادمين من البلاد العربية على نشر إنتاجهم بالعربية زيادة في التشويش ، وليس من قبيل الصدفة أن تكون ثلاث من الصحف الست عشرة التي تصدر بالعربية في الأرض المحتلة إنما يحررها ويصدرها يهود قدموا الى إسرائيل من البلاد العربيـة ، كما أنه ليس من قبيل الصدفة أن تكون أول رواية عربية طبعت في إسرائيل هي رواية ابراهيم موسى ابراهيم ، اليهودي العراقي .

إذن يوجد في الأرض المحتلة ١٦ صحيفة تصدر بالعربية ، واحـدة منها يومية (وهي للحكومة) وثمان أسبوعية ، وسبع شهرية ، كلهـا على الاطلاق تتبع الأحزاب الإسرائيلية الصهيونية وتعبر ـ داخـل

Digitized by Birzeit University Library

الدائرة الصهيونية ـ عن وجهة نظر موالية أو معارضة .

وتقدر السلطات الإسرائيلية عدد الذين يكتبون بالعربيـــة ، من شعراء وكتـاب ، في الأرض المحتلة ٢٨ شاعراً وكاتباً بينهم ٨ من اليهود الشرقيين .

ولكن الذي صدر وطبع من الكتب العربية في الأرض المحتلة بعـد ١٩٤٨ لا يتعدى خمسة عشر ديوانـاً شعرياً وحوالى خمس روايات ، لا داعي للحكم هنا على أكثرها ـ ما دامت قد حصلت قبل ذهابها للسوق على اذن الرقيب .

في السنوات الأولى لقيـام إسرائيل لم ينشر سوى شعر غرامي ، لم يلاق أي تجاوب مع الجمهور وظل كاسداً : كانت ثمـة محاولة منذ البدء لتحويل الأنظار الى هـذا النوع من الشعر ، ومعظم الذي نشر كان ركيكاً وتافهاً شكلاً ومضموناً ، ولكن قدوم عـام ١٩٥٢ بثورة تموز المصرية أحدث الهزة المرتقبة .

وبعد ١٩٥٢ فوجئت الصحف اليهوديـــة التي اعتبرت أن ثلاث سنوات من الشعر الغرامي قـــد أثبتت شيئاً ، بتغيُّر نوعي حـاسم في الرسائل التي بدأت تتلقاها بعد أن أعلنت استعدادها لنشر أي إنتـاج شعري لعرب الأرض المحتلة .

واتخذت الصحف اليهودية قراراً بعدم نشر هـــذا الإنتاج القومي فلجأ العرب الى إقامة أمسيات شعريـة في القرى كانت تنقلب دائماً الى مظاهرات وطنية بسبب شدة الإقبال والحماس ، وبعد أن سيق معظم الشعراء العرب الذين شاركوا في هذه الأمسيات مرات عديدة الى حكام قراهم العسكريين للاستجواب صدر قرار بمنـــع إقامة مثل هـــذه

Digitized by Birzeit University Library

الأمسيات ، وهو أغرب قرار يمكن أن يتخذه نظام من الأنظمة .

* * *

على ان هذا القرار لم يكن ليستطيع إيقاف الاندفاعة التي انتظرت خمس سنوات لتنطلق .

إن الذي حدث داخل الأرض المحتلة لم يكن في الواقع إلا الوجه الآخر لما حدث بين شعراء المنفى الفلسطينيين : ففي حوالى تلك الفترة كان شعر المنفى قد بدأ يتحول ، بالتدريج ، من الحماس الصاخب الى الحماس الحزين ولكن الأكثر أملاً .. كانت مرحلة « عدم التصديق » قد انتهت نهايـــة مريرة حين صار الواقع أكبر حجماً من أن يغطّى بالتجاهل .. وقد حدث الشيء ذاته – مع حفظ الفروق التي تفرضها الظروف – بين الأدباء العرب في الأرض المحتلة : لقد انتهت وصلة عدم التصديق التي فشل شعر الغزل في تغطية ضخامتها ، ووجـــد الشعراء العرب أنفسهم – على وجه الخصوص – يواجهون مـا بات يصطلح على تسميته الآن بـ « القضيّة » ..

ولكنهم واجهوهـــا من الطرف المقابل لذاك الذي اختـاره أدب المنفى فاختاروا التحدي .

* * *

سوف ننتظر عشر سنوات أخرى حتى يقدم لنا شاب من البروة، في فلسطين المحتلة، اسمه محمود درويش، تفسيراً رائعاً لحلقة كانت مفقودة في تلك الفترة التي شهدت قفزة الأدب العربي في الأرض المحتلة من الغزل الى الشعر القومي دفعة واحدة .

Digitized by Birzeit University Library

وسنرى في شعر الدرويش ، الذي قاله في أواسط الستينات ، ذلك المزج العميق ، الهادىء ، المتدفق بين المرأة والوطن ليجعل منهما معاً قضية الحب الواحدة التي لا تنفصم .

إن ظواهر من هذا النوع قد شهدها – في وقت لاحق – أدب المنفى ، إلا أن أدب المقاومة في الأرض المحتلة صاغها ببساطة أعمق وأكثر قوة على الاقناع ، وأكثر قرباً من المرأة والأرض معاً .

سنعود فيما بعد بتفصيل أكثر إلى هذه الناحية ، إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه الآن هو أن شعر الغزل الذي تدفق مباشرة وبكثرة في أعقاب الكارثة لم يكن – كما يبدو للوهلة الأولى – ظاهرة مقطوعة الجذور عن شعر المقاومة .

لقد واجه عرب الأرض المحتلة ، فور التمزق الذي جاء مع الهزيمة ، انفصاماً مباشراً في علاقاتهم الصغيرة : تركت الغالبية من العرب أرض فلسطين ، فبدا الموقف للقلة التي بقيت نوعاً من « الهجران » أصابها في صميم علاقاتها اليومية أكثر بكثير مما أصاب النازحين ، وكانت « القضية » تكمن في كل مأساويتها وضخامتها وراء ذلك الهجران ... لقد احتاج عرب الأرض المحتلة الى خمس سنوات ليكتشفوا أنهم لم يخسروا أهلهم وأحبابهم فقط ولكن وطنهم أيضاً ، وان « التمزق » كان يبدو في ظاهرة أكثر فجيعة لأنه أصاب الأحاسيس الفردية أولاً ولأنهم – في نهاية المطاف – لم « يتركوا » وطنهم .

لقد تدفق الغزل ليس فقط ليعوض شعوراً مريراً بالوحدة والاغتراب ، ولكن أيضاً ليشد من جديد علاقات جديدة في ذلك التجمّع الصغير الذي اكتشف فجأة أنه صار « أقلية » مغلوبة على أمرها وسط زحام غريب .

Digitized by Birzeit University Library

وحين أخذ الإحساس بالهزيمة وفقدان الوطن مداه ارتدّت كل تلك العواطف الى الطرف الآخر فبنت « الأقلية» العربية المغلوبة على أمرها، مع ظروفها الجديدة ، علاقة من نوع جديد هو الآخر بإشعارها بقوتها ووجودها ، وهي علاقة التحدي والنزال .

بعـــد عشر سنوات سينجح الدرويش ، وغيره من شعراء الأرض المحتلة الشباب ، في تجنيد هـــاتين العاطفتين اللتين هما ـ في أعمـــاق الإنسان ـ عاطفة واحدة ، داخل موقف المقاومة الذي اختاره أدب الأرض المحتلة .

إلا أن موقف المقاومة لم يكن اختياراً سهلاً بل كان معركة يومية مع عدو خبيث يعتبره مسألة حياة أو موت .

لقد رأينا كيف تصدى الحكم العسكري بوحشيته التقليدية لسياسة القمع .. الا ان القمع لم يكن سلاح الاغتصاب الوحيد،فقد كان سلاحه الآخر الاكثر قدرة على الفتك هو سلاح التضليل و « التوجيه » على كافة المستويات .

وكانت مهمة « التوجيه » هذه مهمة مزدوجة : فمـن ناحية كانت الدولة تقوم بقسطها عبر جريدتها ومنشوراتها وبرامجها التعليمية وتوجيهها الثقافي ، ومن ناحيـــة ثانية كانت الاحزاب الصهيونيـة المعارضة تقف لتتلقف ، في مواقفها المعارضة المغرية ، من يحتاز افخاخ الحكومة .

ففي عام ١٩٥٨ قام حزب المابام المعارض ، وهو حزب يهمه جـداً ان يضمن الاصوات العربية في الانتخابات بأيـــة وسيلة ، بانشاء شركة لنشر الكتب العربية الصادرة في البلاد العربية .

وكان الحزب يعتمد في ذلـك على نهم القارىء العربي المعزول من

Digitized by Birzeit University Library

ناحية وعلى رغبته في طبع كتب ذات لون معين هي تلك التي لا تعكس روحاً وطنية أو تقدمية .. وبالفعل قـــام في ذلك العـــام بنشر بعض الكتب الغرامية التي كان معظمها تافهاً وباقـــلام كتاب مغمورين غـــير موهوبين من حيث الاسلوب وغير جادين من حيث الافكار .

وقد شجع اقبال القارىء العربي الظامىء على توسيع هذه التجارة : فانطلق رجال الأعمال اليهود الى اغراق الأسواق العربية بالكتب التافهة والرخيصة والتي يصطلح عـــادة على تسميتهـــا « بالمفسدة » وطبع الشيوعيون – الذين يتعاملون سياسياً بصورة بارزة مـــع عرب الأرض المحتلة – بعض الكلاسيكيات القديمة والمنشورات الماركسية .

ولكن مسألة النشر بقيت محـــدودة وخاضعة لشروط لا تحتمل : وكانت الازمة ذاتها تشتد فداحة على الصعيد السياسي . فانشق عـــن الشيوعيين بعض الاعضاء العرب البارزين ليؤلفوا جبهـــة « الأرض » العربية التي ما لبثت – بسبب خروجها عـن الطوق الصهيوني المسموح به – ان مُنعت .

عام ١٩٥٩ بدأت منظمة الأرض تطبع نشرة ، مستفيدة من قانون إسرائيلي يسمح لأي مواطن باصدار نشرة واحدة في السنة دون اذن من دائرة المطبوعات ، واصدرت الأرض عام ١٩٥٩ ثلاث عشرة نشرة كانت تطبعها تحت اسماء مختلفة : الأرض – شذى الأرض – صرخة الأرض – دم الأرض – روح الأرض ... في مطبعة صغيرة في عـــكا يملكها سليم الزيبق، وكان عددها الأخير خاصاً بعيد النصر في بور سعيد حيث ملأت صورة عبـــد الناصر الصفحة الأولى ، وحملت الصفحات الأخرى النص الكامل لخطابه يومذاك في بور سعيد .

ويبدو ان هذا العدد أطار صواب المسؤولين الذين لم يكونوا يتوقعون

Digitized by Birzeit University Library

ان تجتاز « الأرض » عبر بوابة القانون، كل شيء فاعتقلت المسؤولين عن النشرة واعقبتها بحملات من الاعتقالات ، ثم اصدرت قرارات نفي بحق قادة المنظمة .

في هذه النشرة التي صدرت ١٣ مرة ، والتي تتداول الأيدي العربية في فلسطين المحتلة اعدادها الموشكة على التمزق بقدسية لا مثيل لهـا ، تنفّس شعر المقاومة العربي للمرة الأولى مرتين أو ثلاث مرات .

وفي ١٩٦٠ قام الادباء العرب بمحاولة أخرى ، فقـد انتهزوا فرصة وجود الكاتب اليهودي بنيامين تموز ، وهـو من مواليد فلسطين ويقدم نفسه كصديق للعرب ، انتهزوا فرصة وجوده فعقدوا معه حلفاً شفهياً يسمح لهم بمقتضاه ان يتخذوا من بيته منتدى يلقون فيه الشعر ويدعون الى السماع من يقدر على الحضور ويتبنى هو—ما دام يقدم نفسه كصديق للعرب — مسألة نشره في المكان الذي يراه .

وكانت التجربة الأولى محزنة : فقـد اعجب بنيامين تموز بقصيدة القاها شاعر عربي تصف تدمير قريته على أيدي الصهاينة عام ١٩٤٨ ، فترجمها الى العبرية ونشرها ، وفور ان حدث ذلك قُدّم الشاعر العربي الى المحاكمة بتهمة « العداء للدولة » واقيل من منصبه التعليمي ، ولما لم ينبرِ أي كاتب يهودي للدفاع عنه مات ذلك الاتفاق الشفهي .

وبعد عام واحـد بـذل الكتّاب العرب في الأرض المحتلة محاولة أخرى ، فاوعزوا للروائي اليهوي آهارون مجيـد ان يقترح على جمعية الكتاب الإسرائيليين قبول الأدباء العرب في صفوفها وتوفير الحماية لهم ، إلا ان هذا الاقتراح رُدّ بالأكثرية ، ولم يوافق عليـه الا اثنان من اعضائها الذين يزيدون على السبعين .

Digitized by Birzeit University Library

وأحدثت هذه المحاولات جميعها قناعات نهائيـــة بالنسبة للشعراء والكتاب العرب باستحالة ذلك الاسلوب ، وصار من الضروري ان يحدد كل اديب انتسابه بصورة واضحة لا تزييف فيها ولا محاولة تحايل على القانون – ويبدو انه في هذه الفترة التي واجه فيهـــا الأدباء العرب هذا الاختيار كان على العرب الذين يعملون في السياسة ان يختاروا أيضاً، فانشق الحزب الشيوعي الإسرائيـلي الى حزبـــين : يهودي وعربي ، واتيحت للحزب العربي الذي كان يشرف على جريدة الاتحـــاد فرصة الاستئثار بها وفتح اعمدتها ، بحد اقصى من الشجاعة الممكنة ، للاقلام العربية التي بدأت تتجه الى الرمز .

وعلى صفحات هذه الجريدة نشر سميح القاسم، وهو شاعر من الرامة، اجزاء من قصيدة رمزية هي عمل فني جيّد ، اسمها « إرم » من أربعـة أناشيد عـــن العرب في الأرض المحتلة بصورة ليست مغرقة كثيراً في الرمزية ، كما نشر كاتب اسمه توفيق فياض مسرحية رمزية أخرى اسمها «بيت الجنون» وقصة اسمها «المشوهون» . . ونشر محمود درويش أجزاء من « عاشق من فلسطين » .

ولكن الميدان الحقيقي لأدب المقاومة ظـــل في ساحات القرى ، والمهرجانات العنيفة ، ونشره الحقيقي الواسع ظل عن طريق الحفظ . .

ومن المصادر القليلة في هـذا المجال يستطيع النـــاقد ان يسجّل ملاحظتين أساسيتين :

– أولاً : الشعر في الأرض المحتلة ، عكس شعر المنفى ، ليس بكاء ولا نواحاً ولا يأساً ولكنه اشراق ثوري دائم ولمل يستثير الاعجاب.

– ثانياً: يتأثر الشعر العربي في الأرض المحتلة بسرعة مذهلة وبتكيف

Digitized by Birzeit University Library

كامل مع الأحداث السياسية العربية ويعتبرها اكمالاً لموضوعه وجزءاً من مهماته .

* * *

فابان العدوان الثلاثي على مصر ، وحتى قبل ان ينجلي الدخـان ، القى حبيب قهوجي ، وهو قروي من فسّوطة برز اسمه فيما بعد كأحد قادة « الأرض » الأربعة (وهـــو منفي الآن في طبريا) ، قصيدة في اجتماع شعبي خاطف في حيفا :

تفجّر من صميمي يا قصيدي جريء اللحن تسخر بالقيود
وارسلها مجلجلة تـــدوّي إلى أرض القنال وبور سعيد
إلى الأبطال قد طاروا خفافاً لصد الغزو كالقدر المبيـــد

* * *

اتنذرُ بالدمار جمـــال مصر وترجو النصر خفـاق البنود
جهنم أرضنا في وجـــه غاز وفردوس لكل أخ ودود

ثم يقول :

قبعت بقرب مذياعي شروداً وروحي عندكم رغم السدود
تُحرّق مهجتي وتذيب نفسي معانقة المعارك من بعيد ...

وفي الفترة ذاتها تقريباً ردّد عرب الأرض المحتلة مع الناصري الشاعر حنا أبو حنا قصيدة أخرى يقول فيها :

بور سعيد الصمود ميناء عز

Digitized by Birzeit University Library

بك ارست أحلامنا المعسوله
وعلى صخرة الخليج على شطّيك
تقفى كلُّ الجيوش الدخيله
هتف المجد بالرجال فهبّوا
. . أي حر يطيق الحياة الذليله !

وللشاعر محمود سليم درويش ، من البروة التي هدمها اليهود ، ديوان شعر مطبوع اسمه « عصافير بلا أجنحة » عن افريقيا ونضالها التحرري، لا تخطىء فيه الأذن على الاطلاق النغم الحقيقي المقصود .

ويردد عرب الأرض المحتلة للشاعر الدرويش قصيدة اسمها « ليلى من غزة » يصف فيها مصير فتاة عربية من القطاع بعد دخول اليهود إليه في العدوان الثلاثي. وتلتمع في هذه القصيدة شفرة نصل جارحة: فالشاعر الذي هُدمت قريته والذي يعيش في قيود الاغتصاب يمضي في رثاء تلك الفتاة وتحيتها وتشجيع أهلها على الصمود .

وحين هدموا قريته جعل أهل الجليل يرددون معه :

« انا في ترابكِ يا بلادي رعشةُ الدفء الفتيّه
انا في كرومِ التينِ في قلب البراري العسجديه
وهنا جذوري في ترابك
كيف تقلعها اياد أجنبيّه ؟ »

ويقول في نهاية القصيدة :

« ما جئت أبكي يا رفاق احبتي
حملتْ جروحي حقدَ مليونٍ
بارضِ الغربةِ ! »

وهو نفسه الذي يقول :

Digitized by Birzeit University Library

« أاجوع يا بلدي ويشبع غاصب
جعل البقايا من عظامي موائدا
انا ثائر لك يا تراب بلادنا
انا ثائر لك يا شقيقي العائدا
ولكي يظل النهر ثراً صاخباً
ناديت ادفع للمصب روافدا !

الا اننا سنشهد تطوراً سريعاً في شعر محمـــود درويش هذا – وهو تطور مرموق ليس من حيث المضمون والقدرة الشعرية فحسب ولكن من حيث الشكل أيضاً . وهو إلى جانب الشاعر سميح القـاسم سيقود بالتدريج الواعي حركة الخروج عن العمود التقليدي واللحاق بالاسلوب الحديث دون أن يفقد حرارته .

لقد غنى شعراء الأرض المحتـــلة العرب مشاكل البـلاد العربية واحداثهـــا ، وتجاوبوا بأسرع مما تجاوب كثير من شعراء العربية مع المعارك والصدامـات التي حفلت بها الساحة العربيـــة خلال السنوات الماضية .. ليس ذلك فقط بل ان شعرهم يطل على تلك الأحداث من مواقع اكثر أملاً وصموداً . لقد رأينا قبل سطور تلك المفارقة الجارحة التي جاءت في قصيدة الدرويش عن « فتاة من غزة » حين بشجعها وكأنه هو الطليق ، ويزرع الآمال في صدور أهليها وكأنه هو الذي يقف على الطرف الآخر من الجبهة .. ان هذه الروح لم تفارق شعر المقـــاومة في الأرض المحتلة على امتـــداد السنين ، وللشاعر الدرويش نفسه قصيـدة أخيرة يقول فيها :

. . « وانت كنخلةٍ في الذهن
ما انكسرت لعاصفةٍ وحطاب

Digitized by Birzeit University Library

وما جزّت ضفائرها
وحوش البيد والغاب ..
ولكني انا المنفي خلف السور والباب » !

وسرعان مـــا يطور هذا الاحساس الى مرحلة متقدمة في قصيدة أخرى يخاطب فيها « الفتاة » الفلسطينية خارج الأرض المحتلة :

« ونعبر في الطريق
مكبّلين
كأننا أسرى
يدي – لم أدر – أم يدك
احتست وجعاً
من الأخرى ؟ »

ويتقدم إلى مرحلة أكثر صميمية بعـــد هذه الاشارة البارعة فيقول لها :

« لعلي صرت منسيّاً لديك ؟
كنغمة في الريح
نازلة الى المغرب
ولكني إذا حاولت
ان انساك
حطّ على يدي كوكب ! »

ذلك ان علاقته « بالخارج » هي قدره، وهي ذات العلاقة التي عبرت عنها قصيدة أخيرة لسميح القاسم عن اليمن :

« لا يعبر بالشباك صباح

Digitized by Birzeit University Library

الا وتطل من الأفق المعبود جراح :
جرح في صدر صعيديّ اسمر
جرح في صدر حُدَيْديّ اسمر
وجراح في صدر تعزّ السمراء
تسقي زنبقة الحريه
في سفح الجبل الأحمر
وتسيل ربيعاً في عطش الصحراء ..
صحرائي العربيه »

ان التشديد على « صحرائي » العربية هو ذاته ما يجعل الشاعر يطل على المسألة كلها من مواقع أكثر أملاً وصموداً :

« ... فكهوف الشاي الأسود والقهوة والقات
صارت ثكنـــات
ورجالي من اسيوط وبور سعيد
كُثر كـــُثر
والنصر أكيد ! »

تراه يتحدث عن « قضيته » أم عن « قضية اليمن » ؟ انه بلا شك يقف في الرؤيا الواضحة : الصريحة والحقيقة والبسيطة ، ذات وقفـــة الدرويش حين لا يجد فرقاً بين حبه لوطنه وحبه لامرأة .

ان العلاقة بين أدب المقاومة وبين المعـــارك العربية خارج الأرض المحتلة هو تلاحم طبيعي . . لقد رأينا كيف عبر الشعر الشعبي ببساطة عن هذه الحقيقة .. ان الشاعر محمود دسوقي من الطيرة في المثلث يدخل هذا العـــالم المتلاحم من بوابة التفاصيل الصغيرة فيعطيه طعماً أكثر بداهـــة . . وربما يكون هذا الشاعر بالذات هو اكثر شعراء الأرض

Digitized by Birzeit University Library

المغتصبة تجاوباً مع الأحداث العربية : فقـــد غنى للجماهير على مدار سبع سنين ملاحم الثورة الجزائرية، وله قصيدة عن رجـاء ابي عماشة ، وأخرى عن ناديا السلطي وثالثة عن جميلة بوحيرد .

وحين نشر الامام احمد قصيدته الشهيرة عن الاشتراكية ردّ الدسوقي بقصيدة أخرى هاجم فيها الملوك العرب الرجعيين جميعاً ، وحين وصل إلى الامام أحمد قال :

« .. وبثالث لبس العمامة صار في صنعـــاء شاعر
وطـن يبـــاع ويشترى وزعامةٌ للغرب تـــاجر
وطـن يبـــاع ويشترى وزعـــامةٌ تلهو ، تقامر
هـــذا يمجّـد اصلَهُ ويجدّه دومـــاً يفـاخر
« انا ابنُ بنتِ محمـــدٍ من جاءَ مكة بالبشائر »
لو كان من نسلِ النبيِ لصرتُ بالاسلام كافر ! »

* * *

على ان الشعراء العرب في الأرض المحتلة كانوا دائماً أكثر تجاوباً بالطبع مع المشاكل اليومية التي كانت تواجههم والتي كانت بالتالي تشكل في مجموعها المحـــاولة الاسرائيلية المزمنة لتكريس الاغتصاب وسحق الشخصية العربية في الأرض المحتلة .

لدينا قصيدة لشاب من اللد عن مشروع المياه الاسرائيلي المعروف الذي أدى إلى تهديم عـدد من القرى العربية ، ولسوء الحظ ليس لدينا النص العربي لهذه القصيدة .

تقول الترجمة ، بعد أن يصف الشاعر جو القرية العربية :

Digitized by Birzeit University Library

« . . . ثم مات العيد
وتلاشت الأغنيـــة
ولن يكون هناك أي عيد
في العـــام القادم
الاطفال لن يلعبوا الطرة
الطيـــور ستصمت
بائع الكعك لن ينادي على كعكه
ولن يحضر الشيخ ثوباً جديداً
لابنته الحسناء

* * *

أغنيةٌ أخرى تلف القرية
اغنيةٌ صفراء حزينة
الدموعُ تسقطُ من العيون الصامتة
تحولتِ الحقولُ الى حرباء
تغير لونُها من الأخضر الى البني
الى الرمادي ..

* * *

الشيخ أبو عليا تعيس
ليس ثمة ثوب أخضر للعيد
انه يوم الحداد
وليس يوم الاغنيات

* * *

الفجر أسود

Digitized by Birzeit University Library

الشمس حجر أسود معلق في السماء
تحطمت الحقول تحت أسنان آلات وحشية
الأطفال يبكون بوهن
القرويون يقفون عاجزين
ويبكون أيضاً . »

إن التصدي ، حين يتجاوز حدود الشجاعة ، لا يجد ما يلجأ اليه غير السخرية .

حين تكون عين الظلم مفتوحة على سعتها ويكون المغلوب على أمره شجاعاً فإنه لن يجد في نهاية المطاف ما هو جدّي أكثر من السخرية، على اعتبار ان الوضع المواجَه برمته هو وضع لا يمكن اعتباره أكثر من مؤقت : كارثة اليوم ومهزلة غداً .

حين يرى العربي في الأرض المحتلة ـ مثلاً ـ مجلساً بلدياً في قريته يتكرر لمدة ١٧ عاماً بصورة عميلة ومزيفة وشكلية، فماذا يستطيع أن يقول عنه ؟

نايف صالح سليم ، من الجليل ، يعطي جواباً :

ومجلسٍ في قريتي ... يمشي بحسن النيّة
مسلمٍ امورهِ ... لخالقِ البريّة
أعضاؤه لحبهم ... في الجاهِ والحريّة
ينسو َنهُ لحاجةٍ ... صغيرةٍ بيتية
وبعضُهم قد اكتفى ... بلقب العضويّة
وبعضُهم في صمته ... كالصورةِ الرمزية
وقد رأيتُ البعض من ... جلساته العصرية

Digitized by Birzeit University Library

والكل فيها صامتٌ ... مـــاش على السجيّة
وان هُمُ تحـــدثوا ... ففي حديثٍ ميت
تلفظهُ أفواهُهم ... لفظاً بلا روية
يُلقونـــه كأنهم ... يُلقون بالتحيّـة
ويصرخونَ دائماً ... في الجلسةِ السريـة
قـانونُهم أحكامُهم ... كالحـكم الدينية
وكلُّ مـا في قريتي ... يبنى على النسبية
بيوتُهـا ، مياهُها ، ... كأرضها الصخريـة
نرفعُها نزرعُهـا ... بالاكتفِ المحنيّة
خيراتُها تنبـع من ... أجسادِنا المضنيـة
ونحن في الشقاء ... والضائقة الماليـة
ولن نظلّ هكذا ... نبـاعُ بالكميةِ
فنحن في عصر انطلاقِ السفن الكونية !

من هـذه النغمة الساخرة يردد أهالي البقيعة قصيدة لمجهول يعارض فيها قصيدة عنترة التي يقول فيها : « أنا في الحرب العوان غير مجهول المكان » .

وكان جبر معدي ، المعروف بتعاونه مع سلطات الاحتلال، قد زار البقيعة فرفض الجميع استقباله أو حتى ردّ السلام، وحين ترك القريـة عارض شاعر مجهول قصيدة عنترة المذكورة على لسان العميل :

« أنا في تالي زماني ... صرت رمزاً للهوان
ساءَ فعـلي فغدا ... يهربُ مني من يراني
شاربي طوّلتهُ ... أوصلتهُ عيني وذاني
ولقد هندزتُ قمبازي ... على الطـرُز الـيماني

Digitized by Birzeit University Library

غير إن اللهَ قــد شقلبَ مجــدي بثواني
ولقـــد ولى زماني ورماني عن حصاني ! »

إن هذه السخرية الصامدة تستثير الدهشة في الواقع، فلا شك في أنها نابعة عن شعور صميمي بأن ما يحدث هو مؤقت وأن التغيير سيقع ذات يوم ، ويمر الكابوس، ويضحي حكاية ليس إلا. انها تنبع من صمود عميق في الضمير الشعبي، وقد اتخذت هذا الطابع اليقيني نتيجة لكونها انبثقت في الريف، الى جانب الأرض، وليس في المدن، وهكذا دارت القضية دورتها الرهيبة : فمن حيث توقع العدو أن يحصد الجهل والتخلف والتفكك فاجأه الريف بصمود حقيقي ، شديد العمق ، ينظر اليه يمر فوق سطح الأحداث ، فوق حقيقة الارتباط بالوطن والأرض ، عاجزاً بحكم طبيعته التاريخيـــة عن التفكير بقبوله ، معتبراً المسألة برمتها من باب البلية التي تضحك ، والتي سرعان ما تمضي .

لدينا لحسن الحظ قصة قصيرة توضح هذا الكلام تماماً ؛ وحين نشرت هذه الحكاية في جريدة الشيوعيين العرب مؤخراً لم تنشر كقصة ولكن كخبر ، ولكن يـداً فنانة جعلت منها قصة لا تفتقر الى عناصر القصة القصيرة الحقيقية، وسرعان ما أضحت جزءاً يحتفظ به من أدب المقاومة في الأرض المحتلة .

لا بأس ، بسبب من قصر هذه الحكاية ، أن نتفحصها :

« عندمـــا سجل ضابط المساحة قطعة الأرض تحت بند « مختلف عليها » بين الدولة وبين ابراهيم الحامد، لم يأبه أبو حامد كثيراً ، وقال : « سجّل ! سجل ! مـــا أرخص من الحبر إلا الورق ، عن أرضي مش متنازل » !

Digitized by Birzeit University Library

واستمر بعدها يفلح الأرض ، تماماً كما فعل طيلة خمسين سنة وأكثر ، منذ أن كان في مطلع العمر يعاون والده ، ومثل مـــا فعل بعد وفاته حتى هذا اليوم .

ومرت الأيام ، وانقضت سنـــة أو أكثر – الله يعلم – ونسي أبو حامد أو كاد ما سجله ضابط المساحة ،ووصلته دعوة للحضور الى محكمة الأراضي بحيفا للنظر في قضية أرضه « المختلف عليها » .

ونزل أبو حامـــد الى حيفا في اليوم المعيّن ، وعطّل حامـد عمله ورافق والده العاجز .

ونادى أحدهم من على عتبـــة إحدى الغرف ، وبصوت جهوري : ابراهيم الحامد تفضّل !

ونهض أبو حامد عن المقعد في غرفة الانتظار ومعه حامد الى جانبه ودخلا قاعة المحكمة وبدأت المحاكمة .

قال الحاكم : يا اختيار ! معك إثبات لملكية قطعـة الأرض قسيمة ٤٨ بلوك ١٩٦٧٠ من موقع الرصيفة من أراضي مجد الكروم ؟

فقال أبو حامد : أيوه يا حضرة الحاكم ، هذي ورثتها عن المرحوم والدي الله يرحم والدك .

قـــال الحاكم : بلاش كلام فارغ ، بلا والدك بـلا والدي – معك كوشان ؟ أي ورقة إثبات ؟

ففكر أبو حامد قليلاً ثم قال : يا سيدي عمبقلك ورثتها عن والدي وفلحتها معاه وأنا ابن خمستعشر سنة .

Digitized by Birzeit University Library

فقال الحاكم : هذا مش إثبات ، طيّب . هذي الأرض فيها ستين بالميه صخور ، ولهذا فهي للدولة .

فانتفض أبو حامد : شو ستين شو سبعين ، التراكتور يحرثها كلها يا حضرة الحاكم ، فيها صخرة هون وصخرة هناك في عرق كل واحدة تينة او دالية ، هاي مش أرض طشلق ، أبوي هرا عمره وهو يقلع حجار منها ، وعمري اهترا كمان وأنا أقلّع .. أيْ ما لقيت الدولة غيرها تلعّب عينها عليها ؟

فقال الحاكم : كمان مرة بلاش حكي فارغ ، الدولة لا تعتدي على أحد ، هذا حقها !

فتساءل أبو حامد : حقها ؟ والله حكي ! الدولة غنيّة يا حضرة الحاكم ، وأنا زلمة ما بملك إلا لحمي وعظمي ، كيف بدها تستقويني ؟

فقال الحاكم : إسمع يا اختيار ، أنت في محكمة ، بلاش حكي مالوش طعمة ..

وفكر قليلاً ثم قال :

– طيب شو رأيك ، الدولة تاخد ستة دونمات وأنت تاخد ستة ؟

فهز أبو حامد رأسه وقال :

– والله يا سيدي أبوي ما قاللي أنه إلي أخو اسمو الدولة حتى أتقاسم معو الأرض .

فنفر الحاكم : يا اختيار أنا رأيي تقبل ، هدا حكمي ، فشو رأيك ؟

فتحرك أبو حامد : والله يا حضرة الحاكم شايف حكمكم زي قرن

Digitized by Birzeit University Library

الخروب أسود أعوج !

وسحب أبو حامد نفسه وخرج يدب على عصاه وهو يتمتم :

« حُكمُ ضَلّ ما ظل » ! »

قد يكون لدينا الكثير من الاعتراضات الفنيّة – إذا شئنا أن نلجأ لبرود الناقد – كي ننال من هذه الحكاية؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن يمر بهـا مرور الكرام وينساها . فهي تعطي بإيجاز خارق ، ورنـة السخرية الشعبية الصامدة تفوح منها ، صورة كاملة شديدة التأثير يندر أن يستطيع حيّز مماثل إعطاءها ، فمـا الذي يهم القارىء ؟ ومن الذي سيهتم بالمقاييس الباردة والنظرية ، في وقت تدخل فيه الحكاية، كقطعة من لحم ، المعركة الراهنة ؟

لقد لخص أبو حامد ، بحكمته النابعـة من ارتباط عريق بالأرض ، من الواقع الذي وصفه بأنه اهتراء عمر أجيال في الأرض ، حقيقة المسألة كما يراها العربي في الأرض المحتلة : « قرن خروب أعوج أسود » ، فهـل هناك وسيلة غير وضع النصل الجارح للسخرية الشعبية على رقبة النظام ؟

لقد عكست هذه السخرية نفسها على المناشير السياسية ، وقـد تكون مطالعة تلك المناشير من أمتع القراءات التي يقدر للمرء أن يحققها، فهي تناول ساخر ، جارح حتى العظام ، مليء بالصور الشعبية التي ، كما يقال في القرى ، لم يملأ الاغتصاب – أبداً – عينيها !

إن حكاية أبي حامد هي ارهاص مبكر للظاهرة التي جاءت فيما بعد على يدي الشاعر محمود درويش والتي أشرنا اليها فيما سبق .

إن ذلك المزج العميق ، البديهي والبسيط ، الذي عبر عنه أبو حامد

Digitized by Birzeit University Library

بين « الشخص والأرض » هو مستوى متقدم في تطور أدب المقاومة العربي في الأرض المحتلة .

في النصف الأول من ١٩٦٦ أودع الشاعر محمود درويش السجن في الأرض المحتلة ، ويبدو أنه في اقامته الطويلة هناك بلور الصورة النهائية لذلك « المزج » المنطقي العميق بين الشخص والأرض ، العلاقة الفردية والعلاقة مع الوطن ، الشخص والشعب ...

في السجن ، كما يبدو ، كتب الدرويش « عاشق من فلسطين » وهي مجموعة من القصائد ينتظمها خط واحد : إنه ليس تصعيداً عاطفياً مشحوناً للعلاقة مع الوطن فقط ، بل هو دمج كلي في القيم التي ظل الشعراء يعتبرونها موزعة – بتساوٍ ما – بين علاقة الرجل بأية امرأة وعلاقته بوطنه .

ان الحبيبة ، في « عاشق من فلسطين » تضحي في القصيدة شفافة الى حد تضيع فيه معالمها بالأرض ، يضحي جمالها هو أيضاً ملخصاً في كلمة ساحرة : « فلسطينية » .. وتبدو هذه الكلمة أكثر من كافية :

« .. واقسم :
من رموش العين سوف أخيط منديلا
وانقش فوقه شعراً لعينيك
واسماً حين اسقيه فؤاداً ذاب ترتيلا
يمد عرائش الأيك ..
سأكتب جملة أحلى من الشهداءِ والقبَلِ :
« فلسطينية كانت ... ولم تزلِ ! »
وهي ليست هذا فقط بل انها المنقذ أيضاً ، والمبرر ، وكل شيء :
« لك المجد ..

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

تجنّح في خيالي
من صداك
السجن والقيد
أراك اذا استندت
الى وساد
مهرةً تعدو ...
احسك في ليالي البرد
شمساً
في دمي تشدو ..
اسميكِ الطفولة
يشرئب أمامي َ النهدُ !
اسميك الربيع
فتشمخ الأعشاب والورد !
اسميك السماء
فتشمت الأمطار والرعد ..
لك المجد !
فليس لفرحتي بتحيري
حد
وليس لموعدي وعدُ !!»

إن الدرويش يعيد في « عاشق من فلسطين » تفسيرَ المرحلة الاولى من شعر شباب الأرض المحتلة العرب الذين صبّوا جهدهم على الغزل بعد النكبة مباشرة ، ولم يكن من الممكن أن تجيء الحصيلة مع الدرويش في هذا المستوى من النضج الفني إلا بعد أن أخذت التجربة مداها وتعمقت المأساة حتى الصميم فأضحت أكثر شمولاً وأكبر حجماً وأعمق جذوراً : اضحت هي الحيـــاة كلها بصورة متلاحمة ، يومية ، ذاتية وعامة في آن

Digitized by Birzeit University Library

واحد .

* * *

أما حين يوشك الصدام الحقيقي ان يحدث فان الحنجرة الشعبية تنقلب فوراً الى المتاريس ، وإلى الالتحام المباشر .

وقد رأينا كيف غنت هذه الحنجرة شعرها العـــالي يوم العدوان الثلاثي ، حين لاحت في الأفق ، لأيام قليلة ، الفرصة التاريخية المنتظرة : فكما أوقد العدوان الثـــلاثي في الوطن العربي آملاً بالالتحام وتصفية الحساب كلياً ، أوقد الأمل ذاته في الأرض المحتلة ؛ ولجأت السخرية ، بانتظار تلك اللحظة التاريخية ، إلى المتراس .

وفي الذكرى التاسعة لمجزرة كفر قاسم في الأرض المحتلة شق وفـد من الشباب طريقه نحـو تلك القرية التي جعلها العرب في فلسطين المحتلة رمزاً للمقاومة ، ولكن وفـد العزاء وشد الأزر فوجيء بالقريـــة مطوّقة ، فقد كان العـدو يخشى ان تنقلب الذكرى ، دأبها كل سنة ، إلى مظاهرة .

ولكن الشباب الذين مُنعوا من دخول القرية تجمّعوا وراء الاسلاك : واحداً وراء الآخر وسيارة وراء الاخرى ، فانقلبت الاسلاك الى مهرجان ، وانشد الشاعر سميح القـــاسم – من الرامة – قصيدة يحفظها كل جليليّ الآن ، فيها :

رغم ليلِ الخِنى وليلِ المظالمْ حل وفدُ الكِفاحِ يا كفرَ قاسم
رغم عُسْفِ الطاغوت يزبدّ سما رغم سدِ الاسلاك في الدرب جاثم
رغم حقدِ الرشاش يشهرُه الظلمُ اتينا . . فليلْتعقِ الخِزيَ حاكم

* * *

Digitized by Birzeit University Library

يا قبورَ الاحبابِ الفَ سلامٍ .. من قبورٍ عزت عليها المعالم
اي شيء من العزاء نزّجي ؟ نحن في اسرة الحِداد توائم
نحن جئنا نهيبُ ان تستفيقي . . فلتلبي النداءَ يا كفر قاسم !

حين تنفتح فرص الالتحام ، اذن ، يقفز الشعر الى مستوى يؤهله ليكون حدّاءً للمسيرة الثورية ، حين يردّ على وجود العدو رده اليومي يلجأ ، كما رأينا ، الى السخرية امعاناً في الاستخفاف ، وحين يتعامل مع قضاياه داخل الأرض المحتلة ، الاقتصادية والاجتماعية ، يرن فيه – بدل النواح والشكوى – نغم التحدي .

فالاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، الذي يندر وجود ما يوازيه سواداً ووحشية في اي نظام عنصري في العالم ، ليس في أدب المقاومة العربي داخل الأرض المحتلة الا مدخلاً للتحدي .

لقد رأينا كيف قرر أبو حامد في حكايته القصيرة ،حين شعر بالدولة الغاصبة تجثم فوق دونماته القليلة التي اهترأ في زرعها وحرثها عمره وعمر والده ، كيـف قرر ببساطة ، دون شكوى ودون نواح ، ان « حكماً ضلّ لا يظل » – لقد اتخـذ من كابوس الاضطهاد الذي ارادوه ساحقاً لعنفوانه عتبة وقف فوقها ليذيع تحدّيه البسيط والعميق ، الشيء ذاته فعله توفيق زيّاد، الشاب من الناصرة،بعد سلسلة الاضطهادات السياسية والاقتصادية الواقعة على عرب الأرض المحتلة حين قال عام ١٩٦٥ :

اهون الف مره ..
ان تُدخلوا الفيلَ بثقب ابره
وان تصيدوا السمكَ المشويّ في المجرّه
ان تحرثوا البحر
ان تنطقوا التمساح

Digitized by Birzeit University Library

اهون الف مرة
من ان تمتوا باضطهادكم وميضَ فكره
وتحرفونا عن طريقنا الذي اخترناه
قيـــد شعره ..
هنا على صدوركم باقون كالجدار
نجـــوع
نعـــرى
نتحـــدى
ننشد الأشعـــار
ونملأ الشوارعَ الغضابَ بالمظاهرات
ونملأ السجونَ كبرياء
ونصنعُ الاطفال جيلاً ناقماً
وراء جيل
كأننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل

وللشاعر سميح القاسم أيضاً قصيدة بهذا المعنى اسمهـا « خطاب من سوق البطالة » تصوّر ، كما فعلت قصيدة زيّاد ، الواقـــع المرير لعرب الأرض المحتلة الذين يبذل العدو في سبيل تحويلهم الى « طبقة خـدام » يهود — كما قال نائب إسرائيلي مرة — المستحيل ..

دائماً — اذن — يبرهن ضمير المقاومة الشعبي في الأرض المحتلة انه في لحظة الالتحام يرتفع فوراً الى مستوى المواجهة الشجاعة ، ولكنه أبداً لا يتخلى عن دوره في الدعوة، مهما اختلفت الوسائل ، ولا يعتبر الواقع البائس إلا منطلقاً للتغيير ، لا للعويل :

للشاعر القاسم ذاته قصيدة اسمها : « بطاقة الى الجماهير » .

Digitized by Birzeit University Library

« ردي على الخصم الالدّ آن الاوان لأن تردي
ردي على كهان عرشٍ شيّدن من صفدٍ وصفدِ

* * *

يا بنتَ من رضعوا على الآفـاق رايات التحدي
ردّي على الخصمِ الالدِ .. آن الاوانُ لأن تردي ! »

* * *

وبوسعنا ان نضيف باطمئنان، في تعداد الظواهر المميزة لشعر المقاومة العربي في الأرض المحتلة، ظاهرة هامة تلاحظ بوضوح كلي: هي ظاهرة يسارية شعر المقاومة هذا .

ولم تبرز هـذه الظاهرة بالمصادفة، ولكن كنتيجة أخرى للظروف التي يعيشها عرب الأرض المحتلة تحت قيـود الحكم الصهيوني ، هـذه الظروف التي يمكن ايجازها وحصرها بثلاث نقاط جوهرية :

أولاً : كون الغالبية الساحقة من عرب الأرض المحتلة تنتسب الى الريف . وبكلمات أوضح : إن معظم عرب الأرض المحتـلة هم من الفلاحين ، الطبقة التي لم يكن لها فقط شرف خوض الثورات المتصلة في فلسطين قبل الاحتـلال ، ولكن أيضاً تلقّي العبء الأكبر من حرب ١٩٤٨ .

ثانياً : كون هؤلاء الفلاحـين يتعرضون يومياً لاجراءات القمع الاغتصابية التي تحاربهم في رزقهم حرباً لا هوادة فيها ... والتعبير عن هذه الظاهرة هو واضح كأشد مـا يكون الوضوح في معظم قصائـد وقصص ومقالات عرب الأرض المحتلة بـدءاً من قصيدة « المستحيل »

Digitized by Birzeit University Library

لتوفيق زياد ومروراً بقصيدة « بطاقة من سوق البطالة » لسميح القاسم وانتهاءً بشعر محمود درويش .

ثالثاً : كون الحكم الاغتصابي – بايجاز وببساطة – وليـــد تآمر الانظمة الرأسمالية التي خلقته وما زالت تدعمه دعمـــاً بصورة متصلة منعكساً على يومياتهم ولقمة عيشهم وحرياتهم .

ولم تؤد هذه الظروف اليومية الى خلق أدب يساري فقط، ولكن أيضاً الى تعميق موقف المقاومـــة ورفعه من مستوى العاطفة المشتعلة العمياء الى مستوى العاطفة الواعية الثابتة الجذور .

إن الذي لا يعرف حقيقة « وجهـــة النظر » الصهيونية بتفاصيلها داخل الأرض المحتلة يفوته كثيراً ان يدرك الابعاد البارقـــة التي تلتمع بسرعة ولكن بحدة حاسمة وبعمق في أدب المقاومة العربي : إن هـذه الاجوبة التي يقررها أدب المقاومة أمام المرافعة الصهيونية التي توجـــه توجيهاً ثقيلاً ويومياً على عرب الأرض المحتلة تحتفظ بالعنصرين الأساسيين اللذين يجعلان من أدب المقاومة أدباً شديـد الوعي دون ان يكون غارقاً في التفاصيل ودون أن تنجح هـــذه التفاصيل في استدراجه الى حوار غير وارد على الإطلاق .

وهذان العنصران هما عمق الموقف الواعي وايجازه الحاسم .
إن محمود درويش يعطي على سبيل المثال نموذجاً رائعاً لهذا الكلام حين يردّ على دعوى اسرائيليـة تقول ان الأجيال اليهودية الجديدة التي ستولد على أرض فلسطين المحتلة ستكون أعمق جذوراً وأكثر ارتبـاطاً وبالتالي أشد مراساً من جيل الطارئين غير ذوي الجذور

« خيول الروم أعرفها

Digitized by Birzeit University Library

وان يتبدل الميدان
وأعرف قبلها اني :
أنا ، زين الشباب وفارس الفرسان »
ثم يضع المسألة برمتها ببساطة وكبرياء وحسم نهائي :
« ... فبيض النمل لا يلد النسور
وبيضة الأفعى
يخبىء قشرها
ثعبان » !

أما توفيق زياد فينتقل الى شوط أكثر مواجهة :

هنا على صدوركم باقون كالجدار
نجوع ، نعري ، نتحدى
ننشد الأشعار
ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الأطفال جيلاً ناقماً
وراء جيل ..

في ثنايا أدب المقاومة يواجه القارىء ردوداً من هـــذا الطراز على مختلف الدعاوى الاسرائيلية الفكرية ، وقد لا يلفت مرورها السريع الحاسم ، الذي يفترض انها دعاوى مفهومة عن فرط تكرارهـا ، نظر القارىء الخارجي ، إلا أنها تبقى بالنسبة للقارىء الذي يتوجه له هـذا الشعر بالأساس ، قضايا ضرورية ولها قيمتها وتغذي موقف المقاومـــة الواعي الذي يرفض أن يستدرج للدخول في حوار قائم على غير التعادل.

إن هذه الظاهرة تضعنا أمام جانب آخر من الموضوع له أهميتـــه

Digitized by Birzeit University Library

البالغة ، ذلك الجانب الذي يمكن ايجازه بالسؤال التالي : كيف ينظر الأدب الصهيوني – في المقابل – للعرب ؟ ما هي حقيقة « العلاقة » القائمة ؟ كيف يرى العربي نفسه في الادب الصهيوني وكيف يراه هذا الادب ؟

إن هذا السؤال مهم للغاية – في بحثنا هذا – لانه يفضح وجهي المسألة : وجه الاحتلال الصهيوني العنصري الذي يدأب على اعتبار العربي في الارض المحتلة نوعاً منحطاً من البشر . ووجه المقاومة العربي المشرق والواعي والمتفوق الذي يعبر عنه – بالمقابل – الانتاج العربي الأدبي في الأرض المحتلة .

ان هذا الصدام المباشر الذي يشكل في الأرض المحتلة مسألة يومية لافكاك منها يعكس نفسه في حقيقة الأمر، ليس على الأدب العربي المقاوم في الأرض المحتلة فقط، ولكن على فهمنا نحن لهذا الأدب عبر ظروفه الموضوعية .

عبر هذا الصدام اليومي نستطيع أن نستخلص صورة أكثر وضوحاً ليس لمهمات أدب المقاومة في وجه الأدب الصهيوني الذي يشكل ضاغطاً خطيراً ويومياً بين ضغوط الاحتلال فحسب ولكن أيضاً لقيمة الأدب الصهيوني وحقيقته حين يتعامل مع « البطل العربي » .

انها بايجاز رمز للمسألة الصهيونية برمتها ورمز لدعاواها وفلسفتها ووجهات نظرها في وجه ما يمكن تسميته باطمئنان : الحقيقة .

سنفرد فيما بعد فصلاً يعرض هذه القضية بايجاز ، ليستعمل بالتالي أداة، من الادوات اللازمة لاكتشاف حقيقة ومهمة أدب المقاومة العربي في الأرض المحتلة ، ولكننا استبقنا التفاصيل كي ننتهي الى استنتاج هام

Digitized by Birzeit University Library

وهو ان أدب المقاومة العربي في الأرض المحتلة يقدم لتواريـــخ الادب المقاوم في العـــالم نموذجاً متقدماً في الحقيقة وعلامة جديدة نادراً مـــا استطاعت آداب المقاومة المعروفة في العصور الحديثة أن تحقق ما يوازيها في المستوى مقارنة بمهماته الصعبة وشديدة التعقيد وظروفه التي لا تشابه بين ما لدينا من الامثلة المعاصرة الا ظروف المواطنين السود تحت حـــكم دولة جنوب افريقيا العنصرية ، بل تفوقها قسوة ووحشية .

* * *

نحن اذن أمام ثلاثة مستويات ، تسير مع الحياة ذاتهـــا ، في أدب المقاومة في الارض المحتلة : حين يحـــاول العدو استدراج العرب الى أي نوع من الحوار يواجه بالسخرية الجارحة التي تدل على أن عيني العرب تنظران اليه كشيء عابر ، ويواجه العربي كل المحاولات العدوة بسحق الشخصية العربية بهذه السخرية الجارحة التي تعـــبر عن أعماق الموقف الشعبي الحقيقي .

وحين يتعامل العربي مع واقعـــه السيء ، على الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي يفوّت على العدو فرصة جعل هذا الواقع كابوساً يمتص كل الحيوية العربية، ولذلك فهو يتخذ من الركام الذي يطرحه هذا الواقع السيء منبراً عاصفاً للتحدي .

وحين تتفجر المواجهة ، وتدنو لحظة الالتحام يتحول أدب المقاومة من الوخز والتحدي الى مواقع الهجوم الحاسم .

هذه الحقيقة تبدو أنصع ما يمكن ملاحظته لدى أي استعراض سريع للانتاج العربي في الارض المحتلة .

ولكن في كل الحالات يظل ذلك الادب فوق مستوى النواح والبكاء

Digitized by Birzeit University Library

والتشكي والعويل اليائس ، يظل في مواقع الهجوم الذي يبشرّ دائماً بيوم النصر .

وأهم من ذلك : يظل حلقة في سلسلة الثورة العربية الدائمة ، فهو قد ضبط خطاه مع الحركة التقدمية العربية عبر كل حواجز القمع والإرهاب واعتبر نفسه بداهة جزءاً منها وانفعل بجوانبها المشرقة انفعالاً عميقاً خلاقاً ؛ وقد تطلب منه ذلك مجهوداً أكبر بكثير مما تطلب من الحركة الثقافية العربية خارج الارض المحتلة بطبيعة الحال ، إلا أنه كان في مستوى هذه المتطلبات الشاقة بلا تردد ، ولبى متطلباتها المزدوجة بكفاءة : قاد من ناحية أولى تيار المقاومة العميق الواعي بشجاعة وكفاءة ، وردّ من ناحية أخرى على مزاعم الحركة الثقافية الصهيونية ودعاواها حين تتعامل في انتاجها الادبي مع « النموذج العربي » ليس فقط عن طريق تقديم النموذج العربي الحقيقي ، ولكن أيضاً عن طريق تقديم الاديب العربي الملتزم والمناضل فوق كل قيود التعسف والسحق .

قدم نموذج « الاديب المقاتل » الذي غاب لفترة طويلة عن حياتنا الثقافية ، وقدم « الادب – المنجل » الذي يشحذ كل يوم وبلا هوادة ليحصد ... كل « قرون الخرّوب السوداء العوجاء » .

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثاني

البطل العربي في الرّواية الصّهيونية

مقابل أدب المقاومة

مقابل أدب المقاومة العربي في فلسطين المحتلة يقف الأدب الصهيوني جزءاً من حركة الثقافة السياسة في الأرض المحتلة وواحـداً من الضغوط الأساسية التي تتصدى لأدب المقاومة العربي هناك ، لا للتأثـير عليـه وسحقه فقط بل أيضاً لتشويهه على الصعيد الداخـلي ومحوه على صعيد الدعاية الخارجية .

عالمياً لا نقاش هناك حـول الدور الذي لعبه الأدب الصهيوني في تجميع رأي عام الى جانب إسرائيل ودعاواها ان « اكسودس » مثلاً ، وكما قيل أكثر من مرة، قد خدم الدعاية الصهيونية والقضية الإسرائيلية أكثر مما فعل أي كتاب صهيوني سياسي .

داخلياً يقف الأدب الصهيوني ليخدم هدفاً مزدوجاً : خلق وتغذية

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

الشخصية اليهودية سياسياً والتأثير على الوعي الثقافي والسياسي العربي داخل الأرض المحتلة في محاولة لتشويهه وحصاره والقضاء بصورة غير مباشرة على جذوره .

إن نتائج هذا كله يمكن ايجازها ببساطة خطيرة : فقد افلح الأدب الصهيوني في محاصرة أدب المقاومة العربي ومنع انتشاره خارج اطار عرب الأرض المحتلة وقدم بدلاً عن وجه المقاومة العربي المشرق وجهاً ممسوخاً ومشوهاً ليس فقط لعرب الأرض المحتلة ولكن للعرب عموماً .

إن ظاهرة الأدب الصهيوني تحتاج لدراسة دقيقة ليس غايتها تضخيم دوره وتحميله ما لا يحمل والدخول الى الهوامش التي حققت له اتساعاً لا يتناسب مع كفاءته ، ولكن اكتشاف القاعدة الفكرية والسياسية التي يصدر عنها وكل ما يتأتى عن تلك القاعدة من نتائج .

وفي طليعة هذه النتائج :

– البطل العربي كما يراه الأدب الصهيوني وكما رأيناه في أدب المقاومة .

– طبيعة الغزو الثقافي الذي يقوم به هذا الأدب على صعيد داخلي وصعيد عالمي وادوات هذا الغزو ودعاواه .

– قيمة أدب المقاومة العربي ومستواه الحضاري والسياسي والإنساني بالمقارنة مع الأدب الصهيوني .

– الدرس التاريخي الذي يمكن ان يستخلص من مثل هذه المقارنة.

وذلك كله يقتضي القاء نظرة شاملة .

* * *

مع الاعمال الادبية الصهيونية ، سواء القديمة منها أو الجديدة

Digitized by Birzeit University Library

الميثولوجية أو المعاصرة تبدو كلمتا العرق والدين ، في معظم الاحيان ، اصطلاحين لمعنى واحد .

واذا كانت هذه الظاهرة لافتة للنظر حقاً فانها ، من ناحية أخرى، عنوان واضح لجوهر الدعوة الصهيونية السياسية وقاعدة من اهم قواعد هذه الحركة بالرغم من التغيير في الاسماء الذي يصيبها بصورة دورية تقريباً .

انه من الواضح ان بعض مجتهدي الديانة اليهودية كانوا الاداة الاولى التي حاولت دمج كلمتي العرق والدين دمجاً كاملاً ، وهو أمر فعله عدد من مجتهدي بقية الأديان تقريباً وبوسائل مختلفة في فجر ظهورها ، الا أن مجتهدي اليهود هم وحدهم ، لأسباب لا تدخل في نطاق هذا البحث ، الذين حرصوا على مواصلة هذه المحاولة على مدار القرون . واذا كانت هذه المحاولة قد تراوحت بين الحضيض والذروة ، بين الفشل الذريع والنجاح الجزئي خلال الألفي سنة الماضية، فان الذي لا شك فيه ان نشوء الحركة الصهيونية أعطاها دفعة جديدة ما لبثت أن تبلورت بالتدريج ، وعبرت عن نفسها مباشرة وبوضوح لا يقبل الجدل بعد مرورها بتجربتيها الحاسمتين وهما الاضطهاد الهتلري وانشاء اسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ .

يقول سيغموند فرويد في كتابه « موسى والتوحيد »(١) :

« لقد خلق موسى شخصية اليهود باعطائهم ديناً صعد ثقتهم بأنفسهم الى درجة آمنوا معها بانهم متفوقون على كل الشعوب الاخرى ، ولقد بقوا نتيجة هذا التفوق على الآخرين » .

ويقول في مكان آخر من نفس الكتاب(٢) : « لا شك انهم، أي اليهود، يمتلكون فكرة حسنة جداً عن أنفسهم : يعتقدون انهم أنبل من غيرهم

Digitized by Birzeit University Library

وأرفع مستوى وأكثر تفوقـــاً على الآخرين .. انهم يؤمنون حقاً بانهم شعب الله المختار ويعتقدون انهم مقرّبون من الإلـه بصورة خاصة،وهذا هو ما يجعلهم فخورين وواثقين بانفسهم » .

من الضروري أن نلاحظ كيف يتحدث فرويد عن اليهودية كدين في الوقت نفسه الذي يعطيها فيه صفات العرق وهو يعتقد بأن شعور اليهود بالتفوق العرقي ليس ناتجـــاً عن عقدة نقص ناشئة عن الاضطهاد الذي تعرضوا له ولكن عن قناعة واقعية بالتفوق الطبيعي .

ويؤكد هذا الموقف حين يقول في كتاب « موسى والتوحيد » ان اللاسامية ذاتها ، القديمة جداً باعتقـــاده ، قـد نشأت لكون الشعوب الاخرى تغار من اليهود لأن المسيح أنجب منهم (٣) ومرة أخرى يجزم قائلاً : « نحن نعرف ان موسى أعطى اليهـــود شعور الفخار لكونهم شعب الله المختار » (٤) .

ولكن فرويد نفسه ينقض هذا الموقف في رسالة شخصية كتبها الى صديقه اليهودي ماكس غراف حين أرسل له هذا الأخير يسأله عما اذا كان من المستحسن أن يضع ابنه في مدرسة يهودية خاصة كي لا يتعرض ، اذا ما وضعه في مدرسة مختلطة ، للاسامية ؛ فكتب له فرويد يقول ان عليه أن يضع ابنه في مدرسة مختلطة ليواجه هذه اللاسامية مواجهـــة يومية ، ويشرح له الأمر كما يلي :

« اذا كنت لا تريد لابنك أن يكبر كيهودي فانك تجرّده من منابع الفاعلية التي لا يمكن أن تعوض باي شيء آخر؛سوف يكون عليه أن يناضل كيهودي ، وعليك أن تنمي فيه كل الطاقة التي يحتاجها لهـــذا النضال ، لا تحرمه من هذه المزية » (٥) .

إن هذا الكلام يعني ان « الفاعلية » وان المزية «النضالية اليهودية»

Digitized by Birzeit University Library

و « الخصوصية اليهودية » هي امور لا تتولد تلقائياً عن شعور وراثي بان اليهود هم شعب الله المختار فقط ولكن عن ممارسة يومية طابعها الرئيسي، كما توحي رسالة فرويد نفسه،التضاد والصراع وربما الاضطهاد والاحتقار ؛ ولكن ليس عن شعور ميتافيزيكي غيبي بالابوة والوصاية .

ان هذا التحديد ضروري جداً ليصير من الممكن التمييز بين نوعين من الشعور بالتفوق : النوع الأول هو الفخار، وهو شعور ، الى حد ما، مشروع وطبيعي وعام بينما لا يتجاوز الثاني احتقار البشر والشعوب والنظر اليهم نظرة عرقية باعتبارهم يأتون ثانياً في هرم التركيب البشري.

لقد كان هم فرويد في كتابه « موسى والتوحيد » ان يرد الظاهرة التي سماها التميز اليهودي الى نوع من الشعور بالفخار باعتبار ان موسى وضع اليهود اقرب ما يمكن الى الله والحقيقة. واعتماداً على هذا المبدأ نسب ما أسماه بالتميز اليهودي الى «ثقة اليهود بالحياة» (٦) والى كونه «جزءاً من الدين » (٧) وقد مضى بهذه الفكرة شوطاً أبعد في كتابه اللاحق «في أعقاب موسى». وحملت جورج اليوت هذه الفكرة الى مدى جديد في كتابها « دانييل دروندا» حين جعلت همها ان تفسر اصطلاح «شعب الله المختار » بأنه يعني ان الله اختار اليهود لينقذوا الإنسانية ، أي انه اختارهم « في سبيل الشعوب الأخرى » وقد اتكأت على هذا الهدف الميتافيزيكي لتقفز الى نقطة أخرى وهي الدفاع عن حق اليهودية في ان تكون قومية .

وقد حمل الفكرة نفسها هرتزل في روايته (الأرض القديمة الجديدة) حين أراد ان يبرهن بأن المزج بين الدين والعرق في اليهودية تحت ظل شعار شعب الله المختار انما هو مزج « تفيد منه الإنسانية » .

ولكن هذه الدعوة الجديدة كانت لا تقيم أي حدّ فاصل بين الناس

Digitized by Birzeit University Library

الذين يعتنقون اليهودية وبين انحدارهم من سلالة واحدة ، عرقياً . وقد اضطرت الصهيونية ان تدفع هذه الفكرة شوطاً جديداً الى الأمام حين اصطدمت بنوعين من التحدي ظلا يواجهانها باستمرار : الأول هو أنها كانت مطالبة دائماً بتبرير اصرارها على رفض الاندماج بالشعوب الأخرى ، والثاني هو تفسير خطواتها العملية التي كانت ترتب بدقة متناهية لتحويل اليهودية الى دولة وقومية على حساب الوجود القائم لقومية أخرى وربما لدين آخر .

لقد حاول الفكر الصهيوني السياسي ان يطوع أجوبة هذه التساؤلات، كعادته، لمصلحة حملاته الدعاوية والتعبوية؛ وهكذا مضى في أحيان كثيرة الى تجاهلها ، وفي بعض الأحيان الى تسجيل أجوبة مقنعة ومتبلورة ، ولكن ذلك كله كان شبه مستحيل بالنسبة لمعظم الأعمال الأدبية التي لم تكن مخططة بدقة لخدمة مصلحة الفكر الصهيوني كرواية «دانييل ديروانده» لجورج اليوت، ورواية «الأرض القديمة الجديدة» لهرتزل.

هنا يقدّم أدب المقاومة العربي في الأرض المحتلة جوابه الحاسم ، وهو الجواب الذي تحاول الأعمال الأدبية الصهيونية طمسه بوسيلتين : قتله « بالتوجيه » قبل ولادته ومحاصرته وسحقه اذا ما ولد تحت ركام الروايات الصهيونية الغزيرة ذات الطابع الدعاوي .

انه أدب المقاومة العربي في الأرض المحتلة يتصدى للجواب على تلك التساؤلات التي تجاهلها الأدب الصهيوني حيناً وشوهها أحياناً .

وتولى أدب المقاومة بكفاءة ورغم كل الضغوط النازلة فوقه ابقاء هذا التساؤل الحيوي ماثلاً على صعيد حضاري على الأقل : كلا ، ليس بالوسع بهذه البساطة القفز فوق هذه الثغرة الكبيرة في بنيان الأدب الصهيوني .

* * *

Digitized by Birzeit University Library

قبـــل استعراض الأعمـال الادبيـة التي رافقت سنوات ازدهار الصهيونية كفكرة وحركة ودولة يبدو انـه من الضروري الاشارة الى كتاب صدر عام ١٩٥٥ عـن دار نشر اميركية صهيونية بقلم س . د . غويتن استاذ الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية في القدس المحتلة اسمه (اليهود والعرب — علاقاتهم عبر الأجيال) .

ان هذا الكتاب يعتبر توضيحاً حقيقياً لجوهر ذلك المزج بين العرق والدين كما هو في مرحلته الراهنة . فهو حين يتصدى للجواب على السؤال الهام التالي : « اذا كان العرب واليهود ينتمون الى عرق واحد .. فلماذا اتخذ تاريخ الشعبين اتجاهين مختلفين ؟ » حين يتصدى للجواب على هـذا السؤال تتضح تماماً ابعاد النظرية العرقية المتطرفة الكامنة وراء المزج غير الطبيعي بين العرق والدين (٨) .

فالمؤلف لا يستطيع ، من ناحية منهج البحث ، ان يتصور أي نوع من الانفصال بين الدين الاسلامي والعرب كشعب . ولذلـك فهو يحمّل العرب مسؤولية السلوك القومي للشعوب التي اعتنقت الاسلام ، ويحمل الاسلام مسؤولية السلوك العربي . فإذا تجاوزنا هذه الخطيئة المهلكة في منهج البحث نجـــد ان محاولة المؤلف لاكتشاف أسباب افتراق تاريخ العرب عن تاريخ اليهود ستقع ، وهو ما حدث فعلاً ، في خطأ مهلـــك آخر : وهو ان ما أسماه بالشعب اليهودي لم يكن خـــلال الالفي سنة الأخيرة وحدة قومية وجغرافية وحضارية وثقافيـــة واحدة ليجوز احداث أي نوع من المقارنة ، وان عليه ، اذا أصر على اجراء المقارنة ، أن يعتبر اليهودية عرقاً .

ولذلك فان المؤلف الذي يحاول سدّ هذه الثغرة في البحث لا يستطيع خلال البحث عن الفروق بـين تاريخ الشعب العربي وتاريخ اليهود إلا

Digitized by Birzeit University Library

أن يستشهد « بمميزات اليهود الغيبية » الأمر الذي يدفعه مباشرة الى التقرير بان تفوق اليهود على العرب ، عبر التاريخ ، انما يعود لأسباب عرقية ، لميزات مخلوقة خلقاً مع اليهود ومحرومة بالقضاء والقدر عن العرب .

فهو يعتقد ان اسبقية الدين اليهودي على الديانات مثلاً يمكن أن تنبثق عنها اسبقية الانسان اليهودي على بقية البشر من حيث الوعي والقيمة وبصورة بهلوانية على سبيل المثال أيضاً ينسب المؤلف الحضارة العربية التي جاءت بعد الاسلام الى الاحتكاك الذي حدث بين وسط الجزيرة وبين بقايا ممالك جنوب الجزيرة ، لماذا ؟ طبعاً لأن احتكاكاً آخر كان قد سبق ذلك هو الاحتكاك بين ملكة سبأ وسليمان ، اليهودي (٩) شخصياً !

ان آراء أخرى غريبة ، هي في جوهرها آراء عرقية متطرفة ، يسقط فيها الكاتب وهو يحاول أن يوقف نظريته حول شرعية المزج بين الدين والقومية على قدميها ، فهو يعتقد ، مثلاً ، ان الفرق بين تاريخي العرب واليهود ناتج عن الفرق بين عقلية العربي التجارية والتي لا تفهم إلا بمنطق العرض والطلب وبين عقلية اليهودي التي لا تعتمد إلا على المبادىء (١٠) .

ان هذا المثل هو نموذج واحد فقط على المنطق الذي يجد أي باحث يهودي نفسه مجبراً على تبنّيه حين يريد أن يتصدى للدفاع عن مزج الدين بالعرق وعن النتائج المترتبة على هذا المزج . إن منطق اليوت وهرتزل وفرويد أيضاً، الذي يحاول أن يفسر اصطلاح شعب الله المختار بانه يعني اختيار اليهود في سبيل بقية الشعوب ، لا يمكن أن يتحمل النتائج والأساليب التي ارتبطت عملياً وفكرياً بهذا المزج أثناء تطوره في نصف.

Digitized by Birzeit University Library

القرن الأخير .

ان الأعمال الأدبية الصهيونيـة التي تصدت لتسجيل أحداث الحركة الصهيونية منذ بداية هذا القرن لم تستطع ، لاعتبارات عديدة فنيـة وغير فنية،أن تقفز فوق كل النتائج المترتبة على المزج الكامل والمفروض فرضاً بـين كلمتي عرق ودين واللتين شكلتا جوهر الحركة الصهيونية ، فكيف عالجت هذه الأعمال الفنية هذه الأشكال ؟ وكيف اختارت أن تفسر مبدأ التفوق اليهودي المنبثق عن المزج بين العرق والدين ؟

إن الغالبية الساحقة من الأعمال الأدبية والصهيونية لم تستطع أن تقدم قيمة لاسطورة التفوق اليهودي المنبثقة من المزج بين الدين والعرق. غير ان هذا التفوق هو احتقار عرقي لبقيـة الشعوب ، وخاصة للشعب العربي الذي كان من حظه أن يواجه الصهيونية مواجهة مباشرة ، وغير أسباغ المبالغات في البطولة ، المبالغات الجولياتية، على كل من ينتسب الى ذلك الدمج المفتعل بين العرق والدين اليهوديين .

ترى هل كانت الصهيونية في حاجة الى كل هذه البهلوانية لسد الثغرة التي واجهتها ، في غمار الأعمال الادبية ؟

حتماً كانت في حاجة الى ذلك كله ، وسنرى كيف أدت هـذه القفزات غير المحكمة الى الوقوع – فنيـاً – في سلسلة من الأخطاء التي لا تستطيع الصمود أمام أي نقد أدبي جادّ .

وتبدو هذه الأخطاء اكثر فداحة حين يتصدى أدب المقاومة العربي لها فيقدّم ، تلقائياً ، النموذج الذي بذلت المحاولات الأدبية الصهيونية جهداً أكبر من الكبير لتشويهه وسحقه .

إن هاتين الميزتين : احتقار كل من هو غير صهيوني (الصهيوني هنـا

Digitized by Birzeit University Library

تعني الذي اختار وقبل اعتبار الدين والعرق شيئاً واحداً) واللجوء الى المبالغة البطولية في وصف الصهيوني لتغطية احتياجات ذلك الاحتقار واعطائه مبرراته، ان هاتين الميزتين تكادان تكونان المحورين الأساسيين اللذين يديران الغالبية الساحقة من الأعمال الأدبية الصهيونية المعاصرة .

وبالرغم من اننا سنبحث في نطاق الأعمال الادبية المعاصرة إلا أنه لا بد من التأكيد على شيء هام : ان هذين المحورين كانا دائماً ، عبر معظم فترات التنفس الادبي اليهودي ، سلاح الانعزال اليهودي ، والمتراس الذي من ورائه رفض معظم اليهود مبدأ الاندماج بالشعوب الاخرى ، وقد حفلت الاعمال الادبية اليهودية ، حتى قبل بروز الصهيونية السياسية ، بشواهد دامغة ولا ترد على توفر هذين المحورين : المبالغة في احتقار الآخرين احتقاراً مبنياً على أساس عرقي والمبالغة في امتداح الذات ، على أساس عرقي أيضاً .

ان الشواهد على هذا في التلمود أكثر من أن تحصى ، والواقع ان البطل اليهودي في قصص التوراة تمتّع دائماً بالقوة الخارقة والبطولة التي لم تنتكس لحظة واحدة ، واذا كان من الممكن فهم تلك المبالغات على أساس ان الآله كان دائماً يقف في صف ذلك اليهودي ، وبالتالي يشد في عضده وينجز له المعجزات فان هذا «الاله» ، في الأدب المعاصر، ليس موجوداً بطبيعة الحال ولكن البطل بالرغم من ذلك يحتفظ بتلك القدرات غير المحدودة ليس على القتال فقط ولكن على الانتصار دائماً . ان آري بن كنعان ، بطل اكسودس، لا يقل اطلاقاً ، بدنياً وعقلياً عن أي بطل أسطوري من التوراة ، وحتى « دوف » الانسان غير الطبيعي في الرواية ذاتها هو عبارة عن قدرات غير محدودة وطاقات يستعصي على رجل واحد أن يمتلكها .

قبل بزوغ الصهيونية السياسية ، وفي الفترة التي يسميها اليهود فترة

Digitized by Birzeit University Library

التيه لم يغب عـن مسرح الأدب اليهودي ذلـــك البطل المعصوم الذي يتمتع على الدوام بشعور واضح بالتفوق وباحتقار واضح لكل ما عداه، والشواهد على هـــذا أكثر من ان تحصى بالرغم من ان روبن وولنرود يقول ان الأبطال غابوا من الأدب العبري خلال فترة التيه وان سبب غيابهم هو ان الكتـّاب «لم يروا هدفاً معقولاً لهؤلاء الأبطال، فالاهداف القديمة ضاعت وليس ثمة أهداف جديدة» (١١).

ففي فترة التيه هذه التي يتكلم وولنرود ، وفي قمم عصورها الذهبية في الاندلس، عبّر ابن ميمون المعروف بمايمونيدس عن احتقاره للغة العربية بالرغم من انها اتاحت له ان يقدم إنتاجاً يهودياً عبرها . وفي الوقت ذاته قدم يهودا حليفي ، اليهودي الذي كتب بالعربية أيضاً، نموذجاً لبطل يهودي متفوق عقلياً في كتابه «ملك الخزر» وفي فترة التيه هذه بالذات كتب اليهود أجزاء كبيرة من اجتهاداتهم الدينية التي اضحت فيما بعـد اجتهادات مقدسة والتي تحتوي نصوصاً واضحة تمزج بين الشعور بالتفوق واحتقار الآخرين مزجاً هائلاً .

ومع تزايد المصادر تتزايد الحجج في هذا النطاق ... إن اسطورة اليهودي التائه نفسها ، التي كانت منذ البدء ترمز الى تجريم اليهود بصلب المسيح تنقلب بعد القرن الخامس عشر وبالتدريج لتضحي رمزاً لتفوق اليهودي الذي كسب مزيداً من العقل والعلم عن طريق تجواله الذي لا ينقطع ، وفي مطلع القرن التاسع عشر انقلبت شخصية اليهودي التائـه في الشعر والقصة والمسرحية « من شخصية مستغفر الى شخصية ثائر » (١٢) وفي أواسط القرن دفع اليهودي جاك حليفي « ١٧٩٩–١٨٦٢» بشخصية اليهودي التائه في اوبرا « اليهودية » الى صعيد عرقي ونقلها من قفص المتـَهم الى منبر المتِهم .

وتكاد لا تخلو بعـد ذلك رواية اليهودي التائـــه أو مسرحية أو

Digitized by Birzeit University Library

قصيدة من شخصية هذا اليهودي بصفته رجلاً أفضل من الجميع ، يرمز الى الدين والعرق في آن واحد ، مازجاً بينهما ليصل الى اقرار بالتفوق وباحتقار الآخرين ويصل الأمر بـ (بار لاجر كفيست) الى ان يترك بطله اهاسورس (وهو اليهودي التائه) يحاكم الإله ذاته في آخر رواية كتبت عن اليهودي التائه (١٣) .

وقد يكون من الضروري ان ينتظر الناقد حتى عام ١٨٣٢ ليمسك الشاهد الواضح في رواية اسمها «دافيد آلروي» كتبها بنيامين دزرائيلي الذي صار فيما بعد رئيساً للوزارة البريطانية . ففي هذه الرواية التي كتبت آنذاك توجد البذور الفعلية لولادة الصهيونية السياسية ، يوجد كشف حقيقي عن هذه القضية : في دافيد آلروي (الذي يلفت النظر أمر اختفائه من الأسواق العالمية في السنوات الأخيرة) يعثر القارىء على جمل من هذا الطراز : « العبريون هم عرق غير مختلط » ويقرر المؤلف ، الذي تعتبره الصهيونية اليوم واحداً من طلائعها المبكرة ، انه « ليس بوسعك ان تهدم العرق الصافي ، وهذه الحقيقة سيكولوجية ، وهي قانون الطبيعة البسيط » ويمضي الى ابعد من ذلك فيقول : « إن كل شيء عرق ، وليس ثمة حقيقة أخرى » ويرى دزرائيلي في روايته هذه « أن ما يعتقده الناس سلوكاً فردياً ما هو الا شخصية العرق » .

لقد فتحت هذه الرواية،التي أرادت ان تبرهن ان اليهود هم المؤهلون الوحيدون لقيادة الكون،بوابة واسعة لأعمال مماثلة حاولت ان تضع هذا المنطق ضمن حدود تصل به الى نتيجة . وقد كانت هذه الرواية بالذات سبباً مباشراً من الأسباب التي دفعت جورج اليوت لكتابة روايتها الكبيرة المشهورة دانييل ديروندا ، وفي هذه الرواية وضعت اليوت قاعدة من القواعد التي التزمت بها الروايات الصهيونية اللاحقة وهي القاعدة البطولية (١٤) .

Digitized by Birzeit University Library

في القرن العشرين أضحى هذا الاتجاه بغير ما حاجة الى عين ناقدة ، فهـو موجود في الإنتاج الأدبي الصهيوني بصورة أوضح من ان ينصرف المرء الى التفتيش عليه ؛ موجود الى حد اضطر وولنرود الى تقديم تفسير ، ولذلك يقول : « ان الكاتب اليهودي يفقد كثيراً من موضوعيته بسبب شعوره الكامل بهويته ومسؤولياتها ، ان القرب الشديـد من الأحداث والشخصيات تعطي كتاباته حيويـــة ولكن تعطيها ، بنفس الوقت ، نوعاً من المايوبيا » .[٢٤]

وسنرى فيما بعد ان هذا الكلام غير صحيح ؛ فالكاتب الصهيوني يفقد موضوعيته ليس كلما اقترب من الاحـداث والشخصيات ولكن كلما ابتعد عنها ، ويبدو ان هذه الظاهرة المهمة هي دليل واحـد فقط على ارتطام الوهم الصهيوني بالواقع الماثل وسقوطه نتيجة لهـذا الارتطام . إن البطل اليهودي المعصوم والمتفوق يعيش عهـده الذهبي في أعمـــال الأدباء الصهيونيين الذين لم يعرفوا فلسطين ولم يعيشوا احـــداث انشاء إسرائيل الفاجعـــة . فيما لا نستطيع ان نحصل الا على صورة مهزوزة لهذا البطل في أعمال الأدباء الصهيونيين الذين ارغمتهم أحداث ١٩٤٨ على التمرس بها فعلاً .

إن الروايات الصهيونية التي كتبت بعد ١٩٤٨ تميزت بالميزتين اللتين تحدثنا عنهما قبـــل قليل : الاصرار على بطل يهودي معصوم ومتفوق والاصرار في الوقت ذاتـــه ، وتوضيحاً للصورة ، على احتقار الجانب الآخر ، أي العرب .

إن مثل هذا الانحراف في الرؤيا لا يوجد في أي نوع من الاعمال الأدبية المعاصرة ، حتى في الروايات التي كتبت عـــن « بطولات » الحلفاء في الحرب الثانية ، وكذلك فان قصص رعاة البقر الأميركيين لا تستطيع ان

Digitized by Birzeit University Library

تتوصل الى مضاهاة الأعمال الأدبية الصهيونية في ذلـــك المستوى من انحراف الرؤيا .

ولم يحدث هذا بالمصادفة بالطبع ، فالكاتب الصهيوني يواجه حـين يكتب رواية أو قصة عن إسرائيل ، يواجه واقعاً مزدوجاً لا مناص من حل اشكالاته . هـذا الواقع المزدوج هو تبريره لأعمال العنف التي هدفت إلى طرد العرب من ناحية ، وتبريره لفكرة انشاء إسرائيل من ناحية أخرى .

إن أدب المقاومة العربي في الأرض المحتلة – بالمقابل – يصول هنا في ميدان أقل قيوداً وأكثر التزاماً،وهو لا يحتاج إلى افتعال مبرر لمعركته ولا لقضيته ولا حتى لعنفه .. وفي الوقت نفسه يرد ببساطة بديهيـــة ودون تحايـــل على الدعاوى التي يجد الكاتب الصهيوني نفسه مضطراً لترتيبها في صلب أعماله .. وقد بحثنا هذا الجانب من الموضوع في الفصل الأول ، كما ان النماذج المنشورة في الصفحات التالية من أدب المقاومـــة العربي تعطي دليلاً آخر .

بالطبع ان أية رواية صهيونية لا تخلو،في محاولة لمواجهة هذا الواقع المزدوج ، من استعانة بسلاحين شديدي الاغراء ، أولهما التطويـل في الحديث عن المذابح التي قامت بها الهتلرية وثانيهما الربط بـين الصهيونية ووعود التوراة بشأن فلسطين ، ولكن هذين السلاحين يبقيان سلاحين خارجيين ، واذا كانا ، نظرياً ، مرنين وعاطفيين فانـــه من الضروري التعامل مع أسلحة أكثر داخلية في العمل الادبي،وحين يبدأ أبطال هذه القصص (وهم أبطال يحيئون دائماً من المانيا الهتلرية بمعجزة ، تاركين في مقابرها ومعتقلاتها امهاتهم واخواتهم وأصدقاءهم ، وهم أبطال يحفظون التوراة – دائماً – عن ظهر قلب) حين يبدأ هؤلاء بالتعامل مـــع

Digitized by Birzeit University Library

أعدائهم – وهم لسوء الحظ في فلسطين ليسوا من الالمـان ، ولا يحفظون التوراة غيباً – فإن الحاجة الى نوع جديد من الأسلحة تصبح حاجـــة ملحة ، وهكذا لا يجد الروائي الصهيوني مناصاً من أن يجعل قضيته مع هذا العدو قضية « جدارة » في الحياة . وفوراً ينتهي المؤلف مجبراً الى الاعتقاد بان العربي هو دائماً وضيع وغير انساني وخاطىء وان اليهودي هو دائماً بطل وإنسان وعلى صواب – فكرياً وبدنياً وحضارياً .

ان أدب المقاومة العربي، كما رأينا ، يرد على هذا الكلام دون تردد، وتلقائياً .

فالعربي في رواية نجمة في الريح من تأليف (روبرت ناثان) لا يلعب بعنف فقط « ولكن بوضاعة » (١٥) وهو جبان ويفضل أن يطلق ساقيه للريح عن أن يقاتل (١٦) واذا قاتل فليس لديـــه أي سبب الا النهب (١٧) وهو لا يجيد التصويب (١٨) واذا هرب ترك اخوانه القتلى دون اهتمام(١٩) وفي ص ١٤٤ يكتشف القارىء ان الطائرات العربية، اذا أغارت ، فهي لا تقتل إلا الأطفال . أما في (لصوص في الليل) من تأليف أرثر كوستلر فان سكانقرية عربية كاملة هم من الاميين والبهاليل (ص ١٤) وفي اكسودس من تأليف ليون اوريس توجـــد أكوام من الشتائم الغريبة. وان مقاطع صغيرة «مختارة» تعطي فكرة عن الطريقة التي عالجت فيها هذه الرواية الشهيرة قضية العربي .

مثلاً :

« قال جوسي : بالنسبة للاتراك بوسعك أن تشتريهم ؛ أمـا بالنسبة للعرب فيجب أن نتعلم كيف نعيش معهم بسلام .

رفع ياكوف قبضة يده ولوح بها في الهواء وقال : « شيء واحـــد يفهمه العربي ، انه يفهم هذا فقط » ص ٢٤٤ .

Digitized by Birzeit University Library

ولنستمع الى هذا المقطع من ص ٣٥٧ .

« طرد آري من حوله جماعة من الصبية العرب إلا أن أحدهم ظل يلاحقه :

– اتريد دليلا ؟

– لا

– تذكارات ؟ لدي خشب من الصليب ومزق من الثوب .

– اعرف .

– اتريد صوراً عارية ؟

حاول آري ان يجتاز الصبي الا ان الأخير تمسك بساقيه :

– « ربما تعجبك أختي ، انها عذراء » .

رمى آري للطفل قطعة نقود وقال له « احرس السيارة بحياتك نفسها » !

وفي ص ٣٦٩ هذه الجملة : « وماذا يمكن ان يحدث لو ذهب طه (العربي) الى جوردانا (اليهودية) وقال له انه يحبها ؟.. سوف تبصق عليه ، حتماً » !

وهذه الجملة في ص ٤٣٢ : « لم يكن بوسع أي يهودية ان تعيش مع الانكليزي ارنولد ولم يكن بالوسع ايجاد فتاة انكليزية وهكذا لم يبق الا امرأة عربية » .

لقد رأينا الإنسان العربي في أدب المقاومة : مطالبه وارتباطاته وقضاياه ، ليس فقط في النماذج التي قدمها هذا الأدب ولكن أيضاً في الرجال الذين كتبوه وغنّوه ودفعوا حيواتهم أحيانا ثمناً له، فلنر – اذن – كيف يبذل الادب الصهيوني محاولته للتزوير :

Digitized by Birzeit University Library

في اكسودس نجد ان افضل شاب عربي في الرواية ، وهـــو كمال ، يتمتع بميزة « ممتازة » ليستحق عطف المؤلف وأبطاله ، فهو يعتقد « ان اليهود هم الخلاص الأوحـد للشعب العربي ، واليهود هم الوحيدون الذين جلبوا الضوء الى هذا الجزء من العالم في الألف سنة الأخيرة » ص ٢٧٩ – اما الشاب العربي الآخر (طه) الذي يحظى جزئيـاً بعطف المؤلف وأبطاله أيضاً فهو من الطراز الذي يشرحه المقطع التالي :

« قال آري : رجاء ساعدني ؛ فأجاب طه : أنا عربي .
– أنت إنسان ، انت تعرف الفرق بين الصواب والخطأ .
– أنا عربي قذر !
– أنت الذي تعتقد ذلك بنفسك .
– اذا كنت أخاك ، اذن اعطني جورداتا – نعم ، هـذا صحيح ، اعطني اياها واتركني آخذها الى فراشي ، دعها تحمل مني أولادي .

انطلقت قبضة آري وسحقت فك طه فأرسل العربي راكعاً فوق ركبتيه وراحتيه » – ص ٥١٥

وفي اكسودس ، التي توقفنا عندها قليـــلاً لأنهـا أضحت مقياساً ونموذجاً للأعمال الأدبية التي نشرت معهـــا وبعدها وقبلهـــا ، يعيش الأطفال العرب بلا أهداف (ص ٣٧١) «وإذا هاجم الرجال العرب في ١٩٣٨ فانهم يضعون السكاكين بين أسنانهم » (ص ٣٠١) واذا حاربوا فلأن ضباطهم يجبرونهم بالقوة على ذلـك (ص ٥١٨) ويدفعون لكل منهم دولاراً واحداً في الشهر (ص ٥٢٠) اما حوانيت العرب فهي «لم تكنس منذ عشر سنوات على الأقل » (ص ٤٠٠) وزعماء العرب كلهم جواسيس وعملاء ومأجورون (ص ٣٨) .

وعلى الضفة الأخرى من هذه الروايات يقف البطل اليهودي: متفوقاً

Digitized by Birzeit University Library

ومعصوماً ، لا حدّ لبطولته ولا ميزان لصوابه المطلق : فقائد المباحث القبرصية في اكسودس يعتقد انه لا يمكن اطلاقاً ان تشتري يهودياً ليكون جاسوساً (ص ١١٥) وهو نفسه يعتقد ان اليهود في فلسطين « يأكلون الرجال ... في وقعات الفطور » (ص ١١٥) ودوف ، وهو بطل ثانوي في اكسودس، رغم انحرافه نتيجة تعذيبه على أيدي الألمان، صار أحسن مزور جوازات سفر في بولونيا وهو في الثانية عشرة من عمره (ص ١٣٥) وكان قادراً وهو في العمر نفسه على مطارة عدد كبير من الأشرار (ص ١٣٨) .

والمؤلف لا يجد نفسه غير طبيعي ، على الأقل ، حين جعل مالكولم يقول : « إن رجالكم في الهاغناه يشكلون بلا تردد أعلى مستوى ثقافي وعقلاني ومثالي لرجل تحت السلاح في العالم أجمع » (ص ٣٠٥) كما ان جوسي اليهودي ، من فوق صهوة جواده ، يقوم منفرداً بتأديب قبيلة بدوية كاملة عن طريق جلد زعيمها بالسوط (ص ٢٥٤) . واليهود حتى اثناء قصف المدافع لبيوتهم لا يستطيعون الا مواصلة الاستماع الى الموسيقى السيمفونية والقيام بتجارب الاوركسترا (اكسودس ٥٥٨) (نجمة في الريح ص ١٥٩) وببساطة يقرر مؤلف « نجمة في الريح » :

« انني اتصور انه لم يعد يوجد في هذا العالم أي شجاع الا شعبنا اليهودي » (ص ٧٧) وانه اذا كان الكاثوليكي يضع نفسه في يد الله ويترك المعجزات للقديسين فان اليهودي يقوم باجتراحها (ص ١٥٩) وفجأة ينقلب كل أبطاله اليهود ، على اختلاف شخصياتهم ، فوق ظهر السفينة التي نقلتهم الى فلسطين الى أبطال شديدي الروعة . اما يائيل ديان فقد قررت في كتابها « طوبى للخائفين » ان العرب لم يقاتلوا لأنهم جبناء « وقد انتصرنا طبعاً » (ص ١٣٠) وفي اكسودس يقوم مدنيو سفينة « أرض الميعاد» اليهود بهزم جنود مدمرتين بريطانيتين في معركة

Digitized by Birzeit University Library

دامت ٥ ساعات استعمل فيها اليهود خراطيم المياه والحجارة مقابل الرصاص (ص ١٦٦) والقارىء لا يستطيع ان يعثر على نقطة ضعف واحدة في شخصيات الأبطال الرئيسيين والثانويين اليهود في المجموعة البارزة من الأعمال الأدبية الصهيونية . في اكسودس تبدو هذه الظاهرة الراعبة بشكل مضحك ، وتبدو بصورة فضائحية في « نجمة في الريح» أما الأبطال في « الانتصار الأكبر » من تأليف لستر غورن و « الرغبة الأخيرة » من تأليف جوزف فيرتل فهم الكمال نفسه ، وكل ما عداهم يجب ان يكون في الدرجة الثانية .

* * *

ان الخط الذي تجري فوقه أحداث الصهيونية التي كتبت في أعقاب ١٩٤٨ يمكن أن يحدد كما يلي :

أولاً : البطل غالباً ما يكون قادماً من اوروبا، مهاجراً الى فلسطين بدافع « وطني » وأخلاقي ، تاركاً وراءه ذكرى طازجة جداً لمذبحة أو لمذبحتين هتلريتين فقد فيهما أهله وأصدقاءه — هذا البطل بالذات تكرر في اكسودس بشخصية دوف ، وفي نجمة في الريح ، وفي « الانتصار الأكبر » وفي « الاغراء الأخير » وفي « غبار » ليائيل دايان وفي « في أعقاب خيال عملاق » من روايات السيرة (تد بركان) وفي غيرها .

ثانياً : البطل أو البطلة يقع أو تقع في غرام شخص غير يهودي ، وعن طريق العلاقة بينهما يقدم المؤلف شرحاً للصهيونية ويدير نقاشاً بين الطرفين على هواه ، النتيجة طبعاً هي أن يكتشف غير اليهودي عدالة القضية اليهودية فيضحي بدوره جندياً من جنود الصهيونية .

ثالثا : العرب ، بصفتهم الطرف الآخر في الرواية ، لا قضية لهم ،

Digitized by Birzeit University Library

وكي يبرهن المؤلف على ذلك يلجأ الى الغاء قضية العربي الوطنية وتكبير الاشنكال اليهودي الذي لا حل له ويبذل جهداً ليبرهن ان العرب خربوا أرض فلسطين وهو جهد يترافق عادة بمحاولة لتضخيم آثار اليهود فيها ، وغالباً ما يكون البطل ضليعاً في التوراة وفي علم الآثار اليهودية .

رابعاً : مسلحاً بهـذه الأسلحة يدخل المؤلف الى الأحداث ولكنه يظل محتاجاً الى اظهار اضطهاد العالم له ، والأميركيون والدانمركيون ، لاعتبارات مختلفة ، هما الشعبان الوحيدان اللذان نجوا من انتقادات واحتقارات الرواية الصهيونية . إن الحملات التي توجه عادة الى الشعوب الاخرى تنطلق من محاولة لإظهار تماسك اليهود كأقلية وجهدها البقاء في جوّ معاد ، الأمر الذي ينفي أية بادرة طيبة من قبل تلك الشعوب . ولأنه لا يمكن حصر مثل هذا الهدف فان المؤلف لا يستطيع عادة السيطرة عليه وبالتالي ينقلب الى هجوم فيه الكثير من التصغير والاحتقار كما حدث مع ليون أوريس في اكسودس حين تحدث عن مقاومة اليهود في بولونيا فافرد صفحات لتصغير واحتقار البولونيين (ص ١٣١) .

خامساً: بسبب فقدان الرابطة الجغرافية واللغوية والتاريخية لليهود لا يستطيع المؤلف الصهيوني في حديثه عن اتجاه اليهود الى فلسطين ان يتجنب اعتبار الدين والعرق كدافع واحد داخلي يصاحب الدوافع الخارجية (الهتلرية والاضطهاد) لهذه الحركة تجاه فلسطين ، ولذلك تقع الأعمال الأدبية الصهيونية في شباك التشدق العرقي بطرق متفاوتة ، كما حدث في دافيد آلروي لبنيامين دزرائيلي ، وكما حدث فيما بعد في اكسودس وفي طوبى للخائفين وفي عدد كبير من القصص القصيرة التي تعاملت مع هذا الموضوع .

إن هذه المحاور الخمسة تشكل معاً الهيكل العظمي للغالبية الساحقة

Digitized by Birzeit University Library

من الأعمال الأدبية الصهيونيةالتي تصدت لتأريخ الأربعينات والخمسينات من هذا القرن ، على أصعدة متفاوتة ، فإذا كان ليون أوريس لم يكتف بمئات من الصفحات تحدث فيها عن الاضطهاد النازي حديثاً دراماتيكياً محشواً بمبالغات اسطورية ، اذا كان أوريس لم يكتف بذلك فملأ مئات من الصفحات الأخرى بمحاولات مبالـــغ فيها أيضاً لتحقـــير العرب والشعوب الأخرى فإن يائيل دايان في (غبار) مثلاً استطاعت أن تتجنب الحديث عن العرب وأن تحصر الرواية كلها في نوع من المونولوج الداخلي يجريه البطل بين صفحة وأخرى مع أهله الذين أحرقوا في أحد المعتقلات الهتلريـــة ، ولكن الاثنين – على اختلاف مقدرتهما الفنية وطريقـــة معالجتهما للمشكلة – لم يستطيعا على الاطلاق أن يقدمـــا للاشكالات التي تنبثق عن المزج بين الدين والعرق ، هـذا المزج الذي لا مناص من مواجهته في الأعمال الأدبية ، تبريراً : فمن ناحيـة أولى يلجأ مؤلف اكسودس صراحة الى أسلوب نازي في اقامـــة مستويات بين الاعراق يمنح ما يشاء منها حق الحياة ويحرمه لمن يشاء؛ ومن ناحية ثانية تسلط يائيل دايان سيف هتلر على رقاب القراء لتخفي وراء حافتـــه الدموية حقائق أخرى ليست أصغر شأناً أو أقل قرباً من مجمل الصورة التي تتعامل روايتها معها .

على ان طبيعة البحث تقتضي الإشارة الى ظاهرة أخرى .

لقد ذكرنا فيما سبق ان الناقـــد الذي يستعرض الإنتـاج الصهيوني يلحظ ، على عكس ما قـــال وولنرود، ان الكاتب الصهيوني يفقـــد موضوعيته كلما ابتعد عن الأحداث والأشخاص وليس كلما اقترب منها كما قال وولنرود .

إن ليون أوريس أكثر بعداً عن الأحداث من يائيل دايان ، وبالتالي

مكتبة كلية بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

فهو أكثر فقداناً للموضوعية وأكثر لجوءاً الى المبالغـات ، وأكثر تقيداً باسس الصهيونية النظرية وبالتالي أكثر خضوعاً لتناقضاتها من يائيـــل دايان التي عاشت الأحداث عن كثب .

وقرب يائيل دايان من الأحداث هو الذي جعلهـــا في « طوبى للخائفين » تقوم بمحاولة لتبرير البطل المعصوم ، والعنوان واضح في هذا المجال ، وهذا الوعي هو الذي كان وراء قصة « غبار » التي حاولت فيها أن تقدم نوعاً عادياً من البشر ليس مصبوباً في قوالب متطلبات الاعوجاج النظري للصهيونية، ولكن كتّابا صهيونيين أكثر قرباً من الأحداث من يائيل ، عاشوا فترة أطول منها في فلسطين قبل ١٩٤٨ واشتركوا في قتال ١٩٤٨ قدموا في السنوات القليلة الماضية نوعاً من القصص القصيرة هو أقل فقداناً للموضوعية مما قدم أوريس بالطبع ، ومـا قدمت دايان أيضاً .

السؤال هو ، لماذا ؟

أغلب الظن إن هؤلاء القصاصين ، وخصوصاً (بنيامين تموز) و(س. يزهـــار) ليس بمقدورهم موضوعياً أن يحملوا العرب جرائم هتلر ، كما حاول أوريس (ص ٣٨) ، وهم لا يواجهون ، على صعيـــد شخصي ، ضرورة تقديم مبرر للهجرة لانهم كانوا يعيشون في فلسطين قبل ١٩٤٨، وهم ، أغلب الظن والى حد بعيـد ، قد مارسوا نوعاً من العلاقة مـــع العرب في السنوات التي سبقت ١٩٤٨ سواء كانت علاقة قتال أم علاقـة عادية ، وقد شاركوا في الحرب وعاشوها واطلعوا من فوق أرضهـــا الحقيقية على وقائعها، وهم لا يواجهون بالحاح متطلبات الدعاية الخارجية كأوريس مثلاً أو كدايان التي تكتب بالانكليزية ، وقـد شهدوا ولادة اسرائيل ، وأحسوا ، أغلب الظن ، ان التصور النظري لحياة هـــذه

Digitized by Birzeit University Library

الدولة ولمستقبلها لا ينطبق عملياً على الواقع ، وواجهوا داخـل دولتهم الجديدة التناقضات التقليدية التي لم تستطع الصهيونيـة ان تتجنبها وفي أحيان كثيرة زادتها .

لقد نشأ عن كافة هذه الضغوط اضطرار الرضوخ الى حـد أدنى من الموضوعية أكثر مما تتطلب الظروف الاخرى من الصهاينـة الآخرين أن يرضخوا .

ورغم ذلك، وكي لا يمضي بنا التصور الى مداه ، فان الاختلاف بين هؤلاء الكتاب وبين غـيرهم هو اختلاف محدود ؛ ويبدو ان المشكلة الكبرى التي تواجههم في أعمالهم الادبية هي أنهم لا يستطيعون ببساطة أوريس وبركمان وغورن وفيرتل أن يخلعوا عن العرب حقهم في الارض ولا يستطيعون أن يسقطوا من تجـاربهم أكثر من ربع قرن عاشوهـا شخصياً كأقلية فوق أرض كتبوا هم أنفسهم عنها، قبل ١٩٤٨ ، بصفتها أرضاً مضيفة ، كما إنه قد يكون من الميسور أن يرضى الواحد منهم أن يكتب عن العرب فيصفهم بالجبن، وأن يكتب عن بطولة اليهود الخارقة، ولكن من الصعوبة حقاً أن يضع الكاتب منهم في انتـاجه شعوراً بان عام ١٩٤٨ كان جـداراً فصل المجرى المستمر من الزمن ، وان القصة انتهت هناك : ذلك انهم يعرفون ، بحكم تجربتهم الشخصية والمباشرة في النصف الاول من هذا القرن أن القصة ، فعلاً ، لم تنته .

وهذا ليس تخميناً ، بـل هو شيء شديد الوضوح في قصة « شجرة الزيتون » الى كتبها بنيامين تموز ، فاذا تجاوزنا الروح الاستعلائيـة التي يتحدث فيها عن القرويين العرب — ويبدو ان هـذه العلة تستعصي على الشفاء — نستطيع أن نجد في قصته ملامح التحليل الذي توصلنا اليـه قبل قليل .

Digitized by Birzeit University Library

في مكان ما من الجليل يمتلك « علي الطويل » إلى جانب بيته حقلاً من الزيتون، تربض في وسطه شجرة زيتون ضخمة تعطي قدر ما يعطي الحقل كله ؛ من زيتها يدهن أجساد أطفاله حين يولدون ، يشرب في الصباح ، يزين طعامه ويداوي أمراضه ويهدي أصدقاءه وحين أراد أن يزوج ابنته إلى قروي عجوز ورفضت الشابة هـذا الزواج الظالم ربطها إلى جذع الزيتونة يومين وليلتين حتى رضخت ، ولكنها لم تضع حملها في القرية لان اليهود اضطروا أهلها الى النزوح .

المهاجر اليهودي الذي تسلم حقل الزيتون لا علاقـــة له بالزيت ، لا يحبه ويبصق حين يتذوقه ولأنه لا يقص الشجرة فقد بدأ ببيع أغصانها الى الذين يصنعون منها جمالاً وحميراً ويبيعونها للسواح، ولكن الشجرة ذاتها بدت ، أثناء ذلك ، وكأنها تمد أغصانها العالية باتجـــاه الشمال ، كأنها – يقول المؤلف – تنادي فتاة تنتظرها وراء الحدود .

وأخيراً قطعت وزارة الزراعة الشجرة. يقول المؤلف في نهاية قصته: « واجب ان اوضح السببين اللذين اقنعا الوزارة بقطع الشجرة ، الأول ان سلالم قطف الزيتون التي تمتلكها الوزارة، وهي ذات أطوال واحدة، لا تستطيع أن تصل إلى أغصان الشجرة العالية ، والثـاني ان الشجرة جاءت ، بالمصادفة ، وسط الأثلام التي سيسير فيها الجرار أثناء الحرث، وقد ذكرت هذين السببين كي لا يقال ان هناك سبباً ثالثاً » .

ان الغمزة التي سجلها المؤلف في مقطع القصة الأخـير واضحة ، وقد تكون أكثر من مجرد غمزة ، قد تكون طعنة ، وكذلك فإن من الواضح انه استعان بالتحـــيز التقليدي في وصفه العابر لحياة القرويين العرب ؛ ولكن الواضح ايضاً انه لا يستطيع ان يتحـــرك على هواه ، كما فعل أوريس ، وذلك ليس إلا بسبب قربه الشديد من الأحداث .

Digitized by Birzeit University Library

والقصة الثانية هي لـ م . يزهار واسمها « السجين » وهي محاولة لتصوير ما تردده الروايات عن البطولات اليهودية الخـــارقة تصويراً حقيقياً ، ولذلك فهـــو يروي كيف استطاعت فرقة من اليهود اعتقال راعٍ عربي وسرقة مواشيه ، ووصف في قصته وصفاً دقيقـــاً طريقة التنكيل أثناء التحقيق ، والنصف الأخـــير من القصة هو حوار ذاتي يناقش فيه العسكري اليهودي (الذي كلف بنقل السجين مسافة طويلة في سيارة) يناقش نفسه محاولاً أن يقنعها باطلاق سراح السجين وتركه يعود إلى زوجته ، والحوار بارع فنيـــاً ، وموضوع على أسس عادلة ، ورغم ان منطق اطلاق السجين يفوز نظرياً ، فان القصة تنتهي دون أن يقوم العسكري اليهودي فعلاً باطلاق السجين .

ان المؤلف الذي لم يستطع أن يصور الراعي العربي إلا وكأنه بهلول، وهي العـــلة نفسها التي أشرنا إليها مرات عديدة ، يحاول أن يخرج من النطاق الفولاذي الذي ضربه الكتاب الصهاينة حول أنفسهم محاولاً ان لا يقسم قصته إلى بياض مطلق وسواد مطلق ، راغباً في تلمس لمحـات انسانية تقرب عمله من الجدارة الفنية بكل متطلباتها .

على ان هناك قصة بارزة ثالثة لبنيامين تموز اسمها « السباق » ، وهي تحكي عن صديقين عربي ويهودي قبل ١٩٤٨ كانا يتسابقان سباحة في نهر قرب يافا، وكان العربي يفوز دائماً . وفي الحرب احتلت مجموعة من اليهود بيارة برتقال ، وفجأة يكتشف قائد المجموعة اليهودية ان قائد المجموعة العربية هو صديقه القديم ، ويبادره العربي قائلاً وكأنه يكمل حديثاً : «حسناً لقد فزت أنت هذه المرة !» الا ان اليهودي يجيبه : « كلا ! ليس بوسعك قول هذا إلا بعد خروجنا من الماء » ويبتسم العربي بأسى فـيما يخلع اليهودي ملابسه وينزل إلى النهر، وهناك يسمع طلقة رصاص فينتابه شعور بأن صديقه القديم قد قتـل ، يخرج فوراً فيجد صديقه ملقى على

Digitized by Birzeit University Library

وجهه ويقول له الجندي اليهودي : « لقد قتل خطأ » ، وحـــين يقلب جسده يرى فوق شفتيه ابتسامة غامضة ، كأنه هو الذي فاز في السباق فعـــلا !

ان الذي نريد التوصل إليه هو ما يلي : ان اخضاع الأدباء الصهاينة المستلزمات الفنية لأعمالهم الأدبية الى متطلبات الدعاية الصهيونية، وإلى اسسها النظرية يوجه طعنة ليس إلى المستوى الفني في العمل الأدبي فقط، ولكن إلى قيمته الانسانية ، وبالتالي فإن هذا ينتهي إلى محاولات مذهلة للحديث عن ذلك المزيج المصطنع للدين والعرق بصورة ينطبع فيهـــا العمل الأدبي بطابعين أساسيين هما الشعور بالتفوق والاستعلاء والاصرار على احتقار كل ما هو غير يهودي .

وهـــذا لا يؤدي إلى انتكاس فني فقط ولكن إلى انتكاس خلقي أيضاً ، وهذان النوعان من الانتكاس هما الصفة الغالبة، موضوعياً ، على الأعمال الأدبية الصهيونية ، والتي حاولت تأريخ فـــترة الأربعينات والخمسينات بصورة خاصة .

من هذا القالون العام تخرج ، إلى حد ما ، الأعمال الأدبية التي قـــام كتّاب يهود أقرب إلى ممارسة الأحداث وبالتالي أقل التزاماً بالمتطلبات النظرية للصهيونية في محاولات لاعطاء اعمال جادة تتجنب ، في حدود معينة ، السقوط في شراك المزج بين العرق والدين والنتائج المترتبة على هذا المزج .

الخطوة التالية في الاستنتاج هي مـــا يلي : ان الأدباء الصهاينة الذين تقيدوا بالأسس النظرية للصهيونية دون تجارب فعليـــة وشخصية على أرض الواقع اعتـــبروا ، في أعمالهم ، ان عام ١٩٤٨ كان جداراً انهى تاريخاً وبدأ تاريخاً جديداً، وكي يتوصلوا إلى هذا الهدف الصهيوني زوروا

Digitized by Birzeit University Library

الواقع وملأوا تسجيلاتهم بالتناقضات واخضعوا الأحـداث الموضوعية إلى أوهام نظرية ، في حين ان الذين اضطروا لممارسة التجربة ومواكبة الواقع ما زالوا عاجزين عن إيجاد أي نوع من التطابق بين هـذا الواقع وبين الأوهام النظرية للصهيونية ، ولذلك فهم يستطيعون ان يتصوروا شجرة الزيتون تمد فروعها العالية بانتظار الغائبين ، وحين يعجزون عن الوصول الى شجاعة الاعتراف بمـا تعنيه هذه الحقيقة يقومون بنشر الشجرة ، وكذلك يستطيعون ان يعرفوا بانه لا يجوز لفرقة عسكرية كاملة ان تستعرض شراستها على راعٍ وان هـذا الراعي يجب أن يعود لأهله ولطرشه وكي لا يقوموا بالخطوة التالية ينهون القصة دون أن يقولوا ماذا حدث وماذا سيحدث ، وهم يعرفون بان السباق لم ينته في النهر الذي يواصل جريانه ، وكي لا تكتمل القصة يجـيزون لأنفسهم اطلاق الرصاص « خطأ » على المتسابق الآخر !

ان هذا القفز من محور إلى آخر في القصة ، والتناقض في السياق بالرغم من المعطيـات التاريخية التي يفترضها المؤلف ، ان هذا كله ناتج عن التناقض الأصلي القائم في الواقع الذي يعيشه ، وفنيـاً أيضاً هو لا يستطيع اكمال قصص على محاورهـا الحقيقية ؛ ذلك ان القصة ليست قصة الراعي فقـط ولكنها قصة المرعى ، ليست قصة المتسابق الذي قتل قبل نهاية الشوط ولكنها قصة النهر ، ليست قصة شجرة الزيتون الضخمة ولكنها قصة صاحبها أبو علي الطويل وابنته وحفيده .

وليس يبدو ، موضوعياً وفنيـاً ، من هو مؤهل لإكمال القصة فوق محورها التاريخي الحقيقي الا هؤلاء .

وهذا بالضبط ما يتصدى له أدب المقـاومة العربي في الأرض المحتلة .

إن المؤلف الصهيوني – في أحسن حالاته وأكثرها اقترابـاً من

Digitized by Birzeit University Library

الموضوعية – يترك نهـــاية القصة معلقة في شعور عميق ، قسري ، بأنه ليس هو الذي يستطيع اكمال القصة .

لقد رأينا كيف « احتار » بنيامين تموز أمـام شجرة الزيتون التي تخص علي الطويل ولكننا ، بالمقابـــل ، سنرى ان توفيق زياد يرى من حقه ان يستعمل شجرة الزيتون هذه استعمالاً بديهياً وشجاعاً وغـــير معرض للحيرة :

« سأحفر كل ما القى
واحفر كل اسراري
على زيتونة
في ساحة الدار ..
ساحفر قصتي وفصول مأساتي
وآهاتي
على بيارتي وقبور امواتي
واحفر كل مرّ ذقته
يمحوه عُشْر حلاوة الآتي ! »

والشيء ذاته حدث « لبيارة » بنيامين تموز في قصته المشار إليها فيما سبق . لقد « اضطر » المؤلف لقتل العربي على حافـــة تلك البيارة في حركة غير طبيعية لانهاء القصة ، ولكن محمـــود درويش ، يتساءل – بالمقابل – :

« لماذا تسجن البيارة الخضراء
في سجن الى منفى الى ميناء
وتبقى رغم رحلتها
ورغم روائح الاملاح والاشواق

Digitized by Birzeit University Library

تبقى دائماً خضراء ؟ »

إن الدرويش يضع هـــذا التساؤل في نطاق قصيدة تعطي جواباً واحداً هو الايجاب .

ذلك ان أدب المقاومة لا يتساءل ، فهو يعرف طريقه جيداً ، وهو واثق منها الى أبعد الحدود آملاً بنهايتها ايماناً لا يتطرق إليه الوهن ..

* * *

وبايجاز : إن أدب المقاومة العربي يحـــارب على جبهتين ، جبهـة التوعية والتعبئة وجبهة الرد ، عامـــداً أو غير عامـــد ، على الأدب الصهيوني ويثبت جدارته على الجبهتين كلتيهما اثباتاً لا تردد فيه .

ذلك انه ، بالاضافه للقضية الكبيرة التي يعيها ويتصدى لها، ينطلق من ايمان عميق بالتزام ذاتي لا يتزعزع ويعي تماماً ما قيمة التزامه ومهمة ذلك الالتزام الحياتي ..

ليس فقط لأنه – كما قال سميح القاسم :

« وحيد في زحام الأرض
الا من أخي الحرف »

وليس فقط – كما قال محمود درويش – لأن الانتصار يأتي :

« وما دامت أغانينا
سيوفاً حين نشرعها
.. وما دامت أغانينا
سماداً حين نزرعها »

ولكن أيضاً لأنه – كما قال نايف سليم :

« ليس ما تنزفه يا قلمي
بعض حبر .. انما بعض دمي ! »

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

هوامش بحث الفصل الثاني

١ – موسى والتوحيد (ص ١٥٨) فنتاج .
٢ – نفس المصدر (ص ١٣٤) .
٣ – » » (ص ١١٦) .
٤ – » » (ص ١٤٧) .
٥ – فرويد والتقاليد اليهودية الغيبية – دافيد باكان (ص ٤٧).
٦ – موسى والتوحيد (ص ١٣٤) .
٧ – » » (ص ١٣٥) .
٨ – » » (ص ٣٣) .
٩ – » » (ص ٣٦) .
١٠ – » » (ص ٤٠) .
١١ – أدب إسرائيل الحديثة (ص ٨٣) .
١٢ – من شيلوك الى سفنغالي (ص ٣٠٧ – ٣٠٨) .
١٣ – موت اهاسورس (١٠٩ – ١١٧) .
١٤ – سول ليبتزن الكتاب اليهـــودي السنوي ١٩٥١ – ١٩٥٢ (ص ٤٢ – ٤٣) .
١٥ – نجمة في الريح – روبرت ناثان (ص ٧١) .
١٦ – » » (١٦٤) .
١٧ – » » (١٨٦) .
١٨ – » » (٢٠٢) .
١٩ – » » (٢٠٣) .

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثالث

نماذج من شعر المقاومة العربي

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

توفيق زيّاد

الناصرة

١ ــ على جذع زيتونة

لاني لا أحيكُ الصوف[١]
لأني كلَّ يومٍ عرضةٌ لأوامرِ التوقيف
وبيتي عرضةٌ لزيارة البوليسِ
للتفتيشِ و « التنظيف »
لأني عاجزٌ أن اشتري ورقا
سأحفرُ كلَّ ما القى
وأحفرُ كلَّ أسراري

---

١ – اشارة الى مدام لافارج التي كانت تحيك بالصوف اسماء أعــداء الشعب الفرنسي عام ١٧٨٩ لتقتص منهم الثورة بعد انتصارها .

Digitized by Birzeit University Library

على زيتونةٍ
في ساحة الدارِ .
سأحفرُ قصتي وفصولَ ماساتي
وآهاتي
على بيارتي ، وقبورِ أمواتي
وأحفرُ كلَ مرٍّ ذقتهُ
يمحوه عشرُ حلاوةِ الآتي !

سأحفرُ رقمَ كلِّ قسيمةٍ
من أرضنا سُلبتْ
وموقعَ قريتي وحدودها
وبيوتَ أهليها التي نُسفتْ
وأشجاري التي اقتلعتْ
وكل زهيرةٍ بريةٍ سحقت
وأسماءَ الذين تفنّنوا
في لوكِ أعصابي وانفاسي
وأسماءَ السجونِ ، ونوعَ كلِّ كلبشةٍ
شُدَّت على كفّي
ودوسيهاتِ حرّاسي
وكلَّ شتيمةٍ صُبّت على راسي
واحفرْ : « كفرُ قاسمَ لست أنساها »

Digitized by Birzeit University Library

واحفرُ : « دير ياسينِ تُشرِّشُ في ذكراها »
واحفرُ : « قد وصلنا قمةَ المأساةِ
لاكتنا ولكناها
ولكنا
وصلناها »
سأحفرُ كلَّ ما تحكي ليَ الشمسُ
ويهمسُه ليَ القمرُ
وما ترويه قبّرةٌ
على البئر التي عشاقُها هجروا
لكي أذكر ..
سأبقى قائماً أحفر
جميعَ فصولِ مأساتي
وكلَّ مراحلِ النكبه :
من الحبه
الى القبه
.. على زيتونةٍ
في ساحة الدار !

Digitized by Birzeit University Library

٢ ــ نيران المجوس

على مهلي
أشدُّ الضوءَ خيطاً ريّقاً
من ظلمةِ الليل
وأرعى مشتَل الأحلامِ
عند منابعِ السيل
وأمسح دمعَ أحبابي
بمنديلٍ من الفلِّ
وأغرسُ اندرَ الواحات
وسطَ حرائقِ الرمل
وابني للصعاليكِ الحياةَ
من الشذا والخيرِ والعدلِ
وان يوماً عثرتُ ، على الطريق ،
يردني أصلي

على مهلي ..

Digitized by Birzeit University Library

لاني لستُ كالكبريتْ
أضيءُ لمرةٍ وأموت
ولكني
كنيرانِ المجوسِ ، أضيءُ
من مهدي الى لحدي
ومن سلَفَي الى نَسْلي
طويلٌ ـ كالمدى ـ نَفَسَي
وأتقنُ حِرفةَ النمِلِ

على مهلي
لأن وظيفةَ التاريخ
أن يمشي كما نملي ..
طغاةُ الأرض حضّرنا نهايتهم
سنجزيهم بما أبقوا
نطيل حبالهم ، لا كي نطيل حَياتهم
لكن لتكفيهم
لينشنقوا !

Digitized by Birzeit University Library

٣ــ أحب ولكن

أحب لو استطعتُ بلحظةٍ
أن أقلِبَ الدنيا لكم رأساً على عقبِ
واقطعَ دابرَ الطغيانِ
أحرقَ كلَّ مغتصبِ
وأوقدَ تحت عالَمِنا القديمِ
جهنماً مشبوبةَ اللهبِ
واجعل أفقرَ الفقراء
يأكلُ في صحونِ الماسِ والذهبِ
ويمشي في سراويلِ
الحريرِ الحرِّ والقصبِ
وأهدمَ كوخَه ، أبني له
قصراً على السحبِ

أحب لو استطعت بلحظةٍ
أن أقلب الدنيا لكم رأساً على عقبِ

Digitized by Birzeit University Library

ولكنْ للامورِ طبيعةٌ
أقوى من الرغباتِ والغضبِ
نفادُ الصبر يا كلكم فهل
أدّى إلى إربِ ؟

صعوداً أيها الناس الذين أحبّهم
صبراً على النوب
ضعوا بين العيون الشمسَ
والفولاذَ في العصبِ
سواعدكم تحقق أجمل الأحلام
تصنع أعجب العجب !

Digitized by Birzeit University Library

٤ ــ المستحيل

أهون الف مره
أن تُدخلوا الفيل بثقب إبره
وأن تصيدوا السمك المشوي في المجرّه
أن تحرثوا البحرا
أن تُنطقوا التمساحَ
اهون الف مرة
من أن تميتوا باضطهادكم وميضَ فكره
وتحرفونا عن طريقنا الذي اخترناه
قيدَ شعره
كأننا عشرونَ مستحيل
في اللد والرملة والجليل
هنا على صدورِكم باقونَ كالجدار
وفي حلوقِكم
كقطعةِ الزجاجِ .. كالصبّار
وفي عيونكم

Digitized by Birzeit University Library

زوبعة من نار
هنا على صدوركم باقون كالجدار
ننظفُ الصحون في الحانات
ونملأُ الكؤوس للسادات
ونمسح البلاط في المطابخ السوداء
حتى نسلَّ لقمة الصغار
من بين أنيابكم الزرقاء ..
هنا .. على صدوركم باقون كالجدار
نجوع ، نعرى ، نتحدى
ننشد الأشعار
ونملأالشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الأطفال جيلاً ناقماً
وراء جيل
كأننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل ..

إنّا هنا باقون
فلتشربوا البحرا
نحرس ظل التين والزيتون

Digitized by Birzeit University Library

ونزرع الأفكار كالخمير في العجين ..
برودة الجليد في أعصابنا
وفي قلوبنا جهنمُ حمرا
اذا عطشنا نعصر الصخرا
ونأكل التراب اذا جعنا
ولا نرحل .
وبالدم الزكيّ لا نبخل
هنا : لنا ماضٍ
وحاضرٌ
ومستقبل .

كأننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل
يا جذرنا الحيّ تشبثْ
واضربي في القاع يا اصول !

أفضلُ أن يراجع المضطهِد الحسابْ
من قبل أن ينفتل الدولاب
لكل فعل رد فعل

Digitized by Birzeit University Library

إقرأوا ما جاء في الكتاب
كأننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل !

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

محمود درويش

(البروة)

١. المناديل

كمقابر الشهداء صمتُكِ
والطريقُ الى امتدادِ
ويداكِ ـ أذكر ـ طائرين
يحوّمان على فؤادي
فدعي مخاضَ البرقِ
للأُفق المعبّأ بالسوادِ
وتوقّعي قُبلاً مدمّاةً
ويوماً ، دونَ زادِ

Digitized by Birzeit University Library

وتعودي ـ ما دمتِ لي ـ
موتي
وأحزانَ الحِداد
كفنٌ مناديلُ الوداعِ
وخفقِ ريحٍ في الرماد
ما لوّحت ، إلا ودم سالَ
في أغوارِ وادي
وبكى ـ لصوتٍ ما ـ حنينٌ
في شراعِ السندباد
ردّي ـ سألتُكِ ـ شهقةَ المنديلِ
مزماراً ينادي
فَرَحي بأن ألقاك وعدٌ
كان يكبرُ في بُعادي
مالي سوى عينيكِ ، لا تبكي
على موتٍ معادِ
لا تستعيري من مناديلي
أناشيدَ الوداد
أرجوكِ
لفّيها ضماداً
حولَ جرحٍ
في بلادي !

Digitized by Birzeit University Library

٢. قصائد عن حب قديم

١ –

على الأنقاض وردُتنا
ووجهانا على الرملِ
اذا مرّت رياح الصيف
أشرعنا المناديلا
على مهلِ .. على مهل
وغبنا طيّ اغنيتين ، كالأسرى
نراوغ قطرة الطلّ
تعالي مرة في البال
يا أختاه !
إنّ أواخر الليلِ
تعرّيني من الألوان والذل
وتحميني من الظلّ
وفي عينيك ، يا قمري القديمَ
يشدُّني أصلي

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

إلى اغفاءة زرقاء
تحت الشمس .. والنخلِ
بعيداً عن دجى المنفى
قريباً في حمى أهلي ..

٢ –

تشهّيْتُ الطفولة فيك
مذ طارت
عصافير الربيع
تجرد الشجر
وصوتك كان – يا ما كان –
يأتيني
من الآبار أحياناً
وأحياناً ينقّطه لي المطرُ
نقياً هكذا
كالنار
كالأشجار
كالأشعار
ينهمرُ
تعالي ! كان في عينيك
شيء أشتهيه

Digitized by Birzeit University Library

وكنت انتظرُ
وشدّيني الى زنديكِ
شديني أسيراً
.. منك يُغتفَر .!
تشهّيت الطفولة فيك
مذ رحلتْ
عني عيونُك
أصدأ القمرُ !

٣ –

ونعبر في الطريق
مكبلين
كأننا اسرى !
يدي ، لم أدر ، أم يدك
احتست وجعاً
من الأخرى ؟
ولم تطلق ، كعادتها ،
بصدري أو بصدرك
سروة الذكرى !
كأنّا عابرا درب
ككل الناس

Digitized by Birzeit University Library

إن نظرا
فلا شوقاً
ولا ندما
ولا شزرا .!
ونغطس في الزحام
لنشتري أشياءنا الصغرى
ولم نترك لليلتنا
رماداً .. يذكر الجمرا
وشيء في شراييني
يناديني ..
لأشرب من يديك
ترمّد الذكرى .!

٤ –

ترجّل مرة كوكبْ
وسار على أناملنا
ولم يتعبْ !
وحين رشفت عن شفتيك
ماء التوت
اقبل ـ عندها ،
يشرب ..

Digitized by Birzeit University Library

وحين كتبت عن عينيك
نقّـط كل ما أكتب
وشاركنا وسادتنا
وقهوتنا ..
وحين ذهبتِ
لم يذهب
لعـلّي صرت منسياً
لديكِ ؟
كنغمة في الريح
نازلة الى المغرب ..
ولكني اذا حاولت
أن أنساكِ
حطّ على يدي كوكب !

٥ —

لكِ المجد !
تجنّـح في خيالي
من صداك
السجن والقيد ..
أراك ، اذا استندت
الى وساد

Digitized by Birzeit University Library

مهرةً تعدو !
أحسك في ليالي البرد
شمساً
في دمي تشدو !
أسمّيك الطفولة
يشرئب أمامي النهدُ ..
أسمّيك الربيع
فتشمخ الأعشاب والوردُ !
أسمّيكِ السماء
فتشمت الأمطار والرعد !
لك المجد !
فليس لفرحتي بتحقّقها
حدٌ
وليس لموعدي وعد ..

٦ –

وأدركَنا المساءُ ..
وكانت الشمس
تسرّح شعرها في البحر
وآخر قبلةٍ ترسو
على عيني مثل الجمر

Digitized by Birzeit University Library

ـ خذي مني الرياح
وقبليني ..
لآخر مرة في العمر .!
وأدركها الصباحِ
وكانت الشمس
تمشّط شعرها في الشرق
لها الحنّاء والعرسُ
وتذكرةٌ لقصر الرقّ
ـ خذي مني الأغاني
وانكريني ..
كلمح البرق !
وأدركني المساء
وكانت الأجراسْ
تدق لموكب المسبيّة الحسناء
وقلبي بارد كالماس
وأحلامي صناديق على الميناء
ـ خذي مني الربيع
.. وودعيني !

Digitized by Birzeit University Library

٣ . عاشق من فلسطين

عيونُكِ شوكة في القلب
توجعني .. وأعبدها
وأحميها من الريحِ
وأغمدها وراء الليل والأوجاع .. أغمدها
فيشعل جرحها ضوء المصابيحِ
ويجعل حاضري غدها
أعز علي من روحي
وأنسى ـ بعد حين ـ في لقاء العين بالعين
بأنّا مرةً كنّا ـ وراء الباب ـ اثنينِ !

* * *

كلامك كان أغنيّهْ
وكنت أحاول الانشاد
ولكن الشقاء أحاط بالشفة الربيعيه
كلامك ـ كالسنونو ـ طار من بيتي

Digitized by Birzeit University Library

فهاجر باب منزلنا وعتبتنا الخريفيه
وراءك ، حيث شاء الشوق
وانكسرت مرايانا
فصار الحزن ألفينِ
ولملمنا شظايا الصوت
لم نتقن سوى مرثية الوطن
سنزرعها معاً في صدر قيثارِ
وفوق سطوح نكبتنا سنعزفها
لاقمارٍ مشوهة وأحجارِ
ولكني نسيت .. نسيت يا مجهولة الصوت
رحيلك أصدأ القيثار ... أم صمتي ؟

* * *

رأيتكِ أمس في الميناء
مسافرةً بلا أهل ، بلا زادِ
ركضت اليك كالأيتامْ
أسأل حكمة الأجداد :
« لماذا تُسجن البيارة الخضراء
في سجن الى منفى الى ميناء
وتبقى رغم رحلتها

Digitized by Birzeit University Library

رغم روائح الاملاح والأشواق
تبقى دائماً خضراء » ؟
وأكتب في مفكرتي :
« على الميناء ..
وقفت .. وكانت الدنيا عيون شتاء
وقشر البرتقال لنا ..
وخلفي كانت الصحراء ! »

* * *

رأيتك في جبال الشوكِ
راعيةِ بلا أغنام
مطار دة .. وفي الاطلال
وكنت حديقتي وأنا غريب الدار
أدق الباب يا قلبي
على قلبي
يقوم الباب والشباك والاسمنت والأحجار

* * *

رأيتكِ في خوابي الماء والقمحِ
محطمةً ..
رأيتك في مقاهي الليل
خادمة ..

Digitized by Birzeit University Library

رأيتك في شعاع الدمع والجرحِ
وأنت الرئة الاخرى بصدري
أنت أنت الصوت في شفتي
وأنت الماء .. أنت النارْ ..
رأيتك عند باب الكهف ، عند الغارْ
معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامكْ
رأيتك في المواقد .. في الشوارع
في الزرائب
في دم الشمسِ
رأيتك في أغاني اليتم .. والبؤسِ
رأيتك ملء ملح البحر .. والرمل
وكنت جميلة كالأرض ، كالأطفال ، كالفلّ

* * *

وأقسم :
من رموش العين سوف أخيط منديلا
وأنقش فوقه شعراً لعينيكِ
واسماً حين أسقيه فؤاداً ذاب ترتيلا
يمدّ عرائش الايك ..
سأكتب جملة أحلى من الشَهْداء والقبل :

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

« فلسطينية كانت .. ولم تزلِ » !

* * *

فتحت الباب والشباك في ليل الأعاصير
على قمر تصلّب في لياليا
وقلت لليلتي : دوري
وراء الليل والسور
فلي وعد مع الكلمات .. والنور
وأنت صديقتي العذراء
ما دامت أغانينا
سيوفاً حين نشرعها ..
وأنت وفية كالقمح
ما دامت أغانينا
سماداً حين نزرعها
وأنت كنخلة في الذهن
ما انكسرت لعاصفة وحطّاب
وما جزّت ضفائرها
وحوش البيد .. والغابِ
ولكني أنا المنفيّ خلف السور والباب
خذيني تحت عينيكِ ..
خذيني أينما كنت ..

Digitized by Birzeit University Library

خذيني .. كيفما كنت
أُرَدُّ الى لون الوجه والبدن
وضوء القلب والعين
وملح الخبز واللحن
وطعم الأرض .. والوطن
خذيني تحت عينيكِ
خذيني لوحة أثرية في كوخ حسرات
خذيني آية من سفر مأساتي
خذيني لعبة .. حجراً من البيت

* * *

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت
حملتك في دفاتريَ القديمه
نارَ أشعاري
حملتك زاد أسفاري

Digitized by Birzeit University Library

وباسمك صحت في الوديان
خيول الروم .. أعرفها
وأن يتبدل الميدان
خذوا حذرا ..
من البرق الذي صكّته أغنيتي على الصوّان :
أنا زين الشباب .. وفارس الفرسان
أنا .. ومحطّم الأوثان
حدود الشام أزرعها
قصائد تطلق العقبان
وباسمك صحت بالأعداء :
كلي لحمي اذا ما نمت يا ديدان
فبيض النمل لا يلد النسورَ
وبيضة الأفعى
يخبىء قشرها ثعبان ..
خيول الروم أعرفها
وأعرف قبلها أني :
أنا زين الشباب وفارس الفرسان !

Digitized by Birzeit University Library

سميح القاسِم

(الرامة)

١ ــ الجواد الجامح

ركبتُ جوادكِ الجامحْ
ويمّمتُ القفارَ الجردَ ، في أثرِ المدى السائحْ
وحيداً في زحام الأرضِ
إلا من أخي الحرفِ
وجزتُ البيدَ
محروماً من الجرأةِ
محروماً من الخوفِ
فكيف أعودُ ؟ كيف أعودُ ؟ يا معبوديَ الجارحْ ؟

Digitized by Birzeit University Library

وأنتَ حرارةُ المهازِ والسوْطِ
وأنتَ وشاحيَ الملتف من كتِفي الى إبطي
وأنت الزادُ .. كلّ الزادْ
وأنت .. وصيةُ الميعاد

* * *

ـ « هنا باريس »
ـ « هنا بيروت » ..
ـ « هنا موسكو »

* * *

وألكزُ ، جامحَ الاحزان ، صدرَ جوادِكَ الجامحْ
وفي سَغَبي وفي ظمأي
أغذُّ السيرَ ... يا معبوديَ الجارح !

* * *

يميناً أيّها المولى
يميناً أيها الجاعلُ من أشواكنا فلاّ
يميناً لن نبيعَ الجرحَ
مهما ساومت مديه
ولن تبقى شقيقتُنا

Digitized by Birzeit University Library

طوالَ الدهرِ ... مسبيّـه !

* * *

ـ « هنا عمان » ..

ـ « هنا روما » ..

ـ « هنا بغداد » ..

* * *

.. فكيف نَفرُّ ؟ كيف نفرُّ من منبتنا الأرضي ؟
وكيف نبيحُ للنسيانِ أجيالاً من البغض ؟
وكيف ؟ وكيف ؟ لن نهدأ
وملءُ عيونِنا المرفأ
ونارُ جبينِـنا المشجوجِ لن تطفأ
بغير ضمادِكَ الرحمن .. يا ايقاعَ احرِفنا
ويا رؤيا تلهـفنا
ويا تاريخنا المنهوب
يا قاتلنا المحبوب
يا موطننا الجارح
فحتى الموت .. حتى الموت
يبقى فارسُ الأحزانِ
عبدَ جوادِكَ الجامح !

Digitized by Birzeit University Library

٢ ــ بطاقة الى الجماهير

ردّي على الخصم الالدّ آن الأوان لأن تردّي
ردّي على كهّان عرش شيد من صفد وصفد
كهان سلطنة الخنى من كل جلف مستبد
وفئول أعداء الحياة ومرتجاها المستجد
القائمين على العهود الناكثين بكل عهد
الأغبياء الواهمين بأنهم أرباب مجد

يا بضعة الشعب المقيم خيامه في كل حد
تتقاذف الأمصار خطوته فمن غور لنجد
يا بضعة المتشردين اللاطمين بالف سد
ماذا ترى أعددتِ ، غير الذل ، للظلم المعدّ ؟

يا بنت من رفعوا على الآفاق رايات التحدي
ردي على الخصم الألد .. آن الأوان لأن تردي !

Digitized by Birzeit University Library

٣ ــ كفر قاسم[١]

رغم ليل الخنى وليـل المظالم — حل وفـد الكفاح يا كفر قاسم
رغم عسف الطاغوت يزبد سما — رغم سد الأسلاك في الدرب جاثم
رغم حقد الرشاش يشهره الظلم — أتينا .. فليلعق الخزي حاكم
نحن من شعبك المقيم على عهـد — الضحايا وذكريات المـآثم
نحن أبنـاؤك الاباة على الضيم — أتينـا من الجليـل المقاوم
ومن الكرمل الصمود أتينـا — لهباً في مرابـع البغي حائم

يا قبور الأحباب ! ألف سلام — من قبور عزّت عليها المعـالم
أي شيء من العزاء نزّجي ؟ — نحن في أسرة الحـداد توائم
نحن جئنا ، نهيب أن تستفيقي — فلتلبي النداء ... يا كفر قاسم !

---

١ ــ عام ١٩٦٥ توجه الشباب العربي في الأرض المحتلة الى كفر قاسم للاحتفال بذكرى المجزرة الدامية التي وقعت هناك في اكتوبر ١٩٥٦ وراح ضحيتها أكـثر من خمسين امرأة وطفلة ؛ إلا أن الحكم العسكري منع القادمين من دخول القرية واقامة المأتم فتجمع القادمون خارج الأسلاك المضروبة حول القرية حيث ارتجل الشاعر فيهم هذه القصيدة .

Digitized by Birzeit University Library

٤ ــ خطاب من سوق البطالة

ربما أفقدُ ـ ما شئتَ ـ معاشي
ربما أعرضُ للبيع ثيابي وفراشي
ربما أعملُ حجاراً
وعتّالاً
وكنّاس شوارع
ربما أخدم في سوح المصانع
ربما أبحث في روث المواشي عن حبوبِ
ربما أحمد ، عرياناً وجائع
يا عدو الشمس ..
لكن لن أساوم
والى آخر نبضٍ في عروقي
سأقاوم ..

ربما تسلبُني آخر شبرٍ من ترابي
ربما تطعم للسجنِ شبابي
ربما تسطو على ميراث جدي

Digitized by Birzeit University Library

من أثاث
وأوانٍ
وخوابي
ربما تحرقُ أشعاري وكتبي
ربما تُطعمُ لحمي للكلاب
ربما تَبْقى على قريتنا كابوسَ رعبِ
يا عدو الشمس
لكن لن أساوم
والى آخر نبض في عروقي
ساقاوم .
ربما تطفئ في ليلي شعله
ربما أحرمُ من أميَ قبله
ربما يشتمُ شعبي وابي ، طفلٌ ، وطفله
ربما تغنمُ من ناطور أحزانيَ غفله
ربما زيفٌ تاريخي جبانٌ
وخرافيَ مؤلَه
ربما تحرمُ أطفاليَ يومَ العيد بدله
ربما تخدع أصحابي بوجهٍ مستعار
ربما ترفع من حواليَّ
جداراً وجداراً وجدار
ربما تصلبُ أيامي على رؤيا مذله

Digitized by Birzeit University Library

يا عدوَ الشمس
لكن ، لن أساوم
والى آخر نبض في عروقي
سأقاوم .

* * *

يا عدوّ الشمس !
في الميناء زينات وتلويح بشائر
وزغاريد وبهجه
وهتافات وضجه
والأناشيد الحماسيّة وهج في الحناجر
وعلى الافق شراع
يتحدى الريحَ واللجّ
ويجتاز المخاطر
انها عودة يوليسيزَ
من بحر الضياع
عودة الشمس وانساني المهاجر
ولعينيها وعينيه، يميناً ، لن أساوم
والى آخر نبض في عروقي
ساقاوم
يا عدو الشمس
اني ساقاوم ..

Digitized by Birzeit University Library

٥ ــ حوارية العار

● **افتتاحية :**

سلطانُ ــ أرضيَ امسِ يذرعُ بهوَه الفخمَ الرهيبْ
وعلى أكفٍّ امائِهِ ..
اطباقُ الماسِ وابريزٍ وفضهْ

● **السادن :**

مولايَ يمتثلُ الجميعْ .
الخزيُ والدمُ والدموعْ
والعبدُ ــ عن كرمٍ ــ يبيحِ السيدُ المعبودُ أرضه
ويبيحُه ــ إن شاء ــ عِرضَهْ
هذي صكوكُ الذلِ ، وقّعها القطيع
وتهافتَ الخصيانُ فامنحْهمْ فتاتَ المائده
واغفرْ لمن ماتوا على درب الرياح العائده
أكفانُهم مُزَقُ البيارقْ
وقبورُهم وحلُ الخنادق

Digitized by Birzeit University Library

أغفر لهم ، فالوغدُ اوزيريسَ ضـلّلهم
بمرشاتِ الحروف الحاقده ..
مولاي ، يا الاسكندرَ العصريّ
يا باري الغيومِ الواعده
أمطِرْ على الاتباعِ يا قوتاً
ونيراناً .. على رمز الغلول الجاحده
هذا الزمانُ ... كما تشاءْ
ورهنَ شهوتِك الفلكْ
والحضبُ في كفّيك
يا تموزنا
والمجد لك !

● العبيد :

المجد لك
المجد لك

● اوزيريس :

عبرَ القرونِ الدامساتِ وعبرَ طوفان الدماء
عبر المذلةِ والخيانةِ والشقاء
عبرَ الكوارثِ والمخاطرْ
عبر المسافاتِ السحيقةِ .. عبر آلاف المجازر

Digitized by Birzeit University Library

عبر انكسارِ الرافدين
وعبر احزانِ الجزائر
عُدنا
وملء قلوبِنا وهجُ النبوةِ والفداءْ
عُدنا
وملء شفاهنا
تسبيحةُ الأُفقِ المكبّلِ .. للضياءْ
عُدنا
فاما للزوايا الدُكنِ ، يا شعبي
وإما للّواءْ !.

● الشاعر :

غيرَ اللواء الحر لا نترسمُ ... وبغير صكّ جراحنا لا نقسمُ
ولغير قدس الشعب لسنا ننحني ... وبغير وحيِ الشعب لا نتكلم
فلتشربِ الرايات نخبَ جراحِنا ... كأساً يفيض على جوانبها الدم !

● السلطان :

باسمي
أعدّوا النطعَ للصوتِ الغريب على فِنائي
وليُصلَبِ المتمرّدون على مشيئتيَ الوحيده
ولتُحشد الاسلاكُ

Digitized by Birzeit University Library

والجوعُ المذل
وعُدَّةُ الموتِ المريره
وليُسحقِ الأوباشُ، أوباشُ العقيده
أنا صانعُ التاريخ كيفَ أشاءُ
حرٌ في عبيدي .. في إمائي !

● السادن :

مولايَ ! مولايَ المطاعْ
الآبقون التافهون فمٌ يصيحُ ولا ذراعْ
ألِّبْ عليهم حسرةَ المنفى وأحزانَ السجونْ
واجعل ضماد جراحِهم ملحاً وكبريتاً وطين
واضرِب بقدرتِك الجليله
لترى جباهَهمُ على نعليكَ خاشعةً ذليله
واذا أمرتَ : فانني سَوْطٌ ومقصلةٌ وسيفُ
واذا أمرتَ فانني لعناتُ جامحةٌ وبيله
لا تسألِ الأحطابَ : من أيِّ الجذوع
ولا تعفْ

● العبيد :

ما شئتَ لك
ما شئت لك !

Digitized by Birzeit University Library

● اوزيريس :

مستنقعاتُ الصمتِ للديدان ، فليقنعْ بصمته
من باع للشيطانِ جُذوَتَه وخانَ عهودَ بيته
مستنقعات الصمتِ للديدان
والقممُ العصيه
للشمس والبصرِ الجسورِ
فتهيئي للقائِنا يا واحةَ الله القصيّـه
نبتت برغم الريح أجنحةُ النسورِ
وقلوبُنا عادت غنيه
وجذورُنا ظلت قويه
عدنا رجالَ الأرض ، ان شحّت
وإن كانت سخيّـه !

● الشاعر :

قسماً باطـلالِ لنـــا تتكلمُ وبصحوةٍ تبني الزمانَ وتهدمُ
قسماً بمن اهووا وآخرُ شهقة منهم بميدان الفداء تقدمـــوا
قسماً باعراسِ الجراحِ وفجرها غيرَ اللواء الحرّ .. لا نترسم !

Digitized by Birzeit University Library

٦ ــ اختي صنعاء

لا يعبر بالشبّاك مساء
إلا وتطلّ من الافق العينُ الكحلاء
عين الحره
بنت الثوره
اختي ، اختي صنعاء !

* * *

لا يعبر الشباك صباح
إلا وتطل من الافق المعبود جراح
جرح في صدر صعيدي اسمر
جرح في صدر حُدَيدي أسمر
وجراح في صدر تعزّ السمراء
تسقي زنبقة الحريه
في سفح الجبل الأحمر
وتسيل ربيعاً في عطش الصحراء
صحرائي العربيه !

Digitized by Birzeit University Library

لا تعبر بالشباك الريح
إلا ويصيح
في قلبي شوق فوق الشوق
لاضمد زند جريح
وأضم الرشاش الى صدري .. آه
يا أروع زحفٍ نحو الشرق !

* * *

رغم الابعاد المرصوده
ودروبي المسدوده
رغم الانباء المشؤومه
عن قتلى ، قتلى ، قتلى ..
رغم البومه ..
ومشانق ملء العتمة من حولي تتدلى
اومن ، اومن ، اومن
يمني ، يمني المعبود
سيعود سعيد
فكهوف الشاي الأسود والقهوة والقات
صارت ثكنات
ورجالي من اسيوط وبور سعيد
كثر كثر
والنصر أكيد !

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

سالم جبران

١٩٤٨

(مقاطع من قصيدة طويلة)

١ –

كان ليل النكبة الأسود ، لا اشعاع فيه
غير اشعاع القنابل
وهي تنصبّ ، على رأس قرى ليست تقاتل ..
ولماذا يا بلادي ؟
قالت الأعين في رعبٍ
ولم تفهم تفاصيل القضيه
من خلال القلق المشبوب قالت :
ثم القينا البنانير على الأرض الشقيه
ورجعنا للبيوت

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

٢ -

ولماذا يا أبي ؟
أترى لبنان حلو كبلادي
أترى فيه حواكير جميله
بينها ترتاح أحلام الطفوله ؟
أترى فيه صغار ـ كبلادي يا أبي ؟
أترى فيه طعام ..
لا كلام ؟
دمعت عين أبي .. أولَ مره
كان كالفولاذ ، طول العمرِ
والدمع بعين الحر جمره ..
خشب السقف أفاعٍ
والجدار
كان مبهوتاً
وكان الجو في أقسى دوار !
إن هذا البيت
يا أماه
ما كان جميلاً أي يوم
فلماذا يا ترى صار عزيزاً وجميلاً ؟
أيها النبع الذي جاد بلا منٍ
على طول السنين

Digitized by Birzeit University Library

من ترى يشرب من مائك بعد اليوم ، من
أيها النبع الحزين ؟

٣ –

اسكتوا ..
صوت ينادي
من تراه ؟
أنصتوا ، بالله ، حين
ـ انه صوت أبي راضي الحزين
« هيهيا عيسى تعال ..
اترك الماء ، اترك الصبة
اترك كل شيء وتعال ! »
الف صوت ، كان من فوق السطوح
يتعالى مثقلاً ، غير اعتيادي ، جريح :
أيها الراعي وراء التل أترك
حيثما كان ـ القطيع
أترى ان ضاع مأساة
وكل الشعب ، في الأرض ، يضيع ؟
أيها الفلاح
لن ينفعكم « قش الجباب »[1]
فعلى الافق ضياع

Digitized by Birzeit University Library

وعلى الافق اغتراب
سوف تبقى الأرض هذا العام بوراً
وستبقى الف عام
أترك المنكوش
فلتبق لهذا الشعب ذكرى حيةٌ
باقية فوق التلال
وتعال ..

٤ –

اسكتوا
صوت مخيف
ما تراه ؟
ـ اخرجي ، خزنة ، للشباك .. شوفي !
ـ يا حزانى يا حزانى !
صرخت أمي برعب
هز أعماق دمانا
فصعدنا كلنا فوق الجدار ..
ان « سُحماتا » جحيم
حرقت فيه الحياة
يا رفاقي
أنا لم انس .. ولو كنت صغيرٌ

Digitized by Birzeit University Library

أيها الأصحاب من قرية سُحماتا
الى أي مصير ؟

---

١ – تنظيف الأراضي الوعرية في الجلول .

Digitized by Birzeit University Library

٢ . ثلاث قصائد

١ – لاجىء

تعبرُ الشمسُ الحدود
دون أن يطلقَ في جبهتها النارَ الجنود
ويغني بلبلُ الدوح ، ضحىً ، في طولكرم
ومساءْ
يتعشى وينامْ
بسلام
معَ اطيارِ كبوتسات اليهود
... وحمارٌ ضائعٌ
يرعى بخطِ النارِ
يرعى في سلام
دون أن يطلقَ في جبهته النارَ الجنود
وأنا : انسانُك اللاجىءْ
– يا أرضَ بلادي –
بين عينيّ وآفاقك : أسوارُ الحدود !

Digitized by Birzeit University Library

٢ – صفد

غريبٌ أنا يا صفد ؟
وأنت غريبه
تقول البيوت : هَلا !
ويأمرني ساكنوها : ابتعدْ !

علام تجوب الشوارع
يا عربيّ ، علاما ؟
اذا ما طرحتَ السلام
فلا من يرد السلاما
لقد كان أهلُـك يوماً هنا
وراحوا
فلم يبق منهم أحد

على شفتي جنازةُ « صبح »
وفي مقلتي
مرارةُ ذل الأسد
... فوداعاً .
وداعاً صفد !

Digitized by Birzeit University Library

٣ – حرمان

ملعونةٌ أمي .
فقد أعطت لغيري ثديَها
يرضعُ منه ، وأنا جوعان
ملعونةٌ أمي
فقد أعطت لغيري فرشتي
فلم أنمْ ، لأنني بردان
ملعونةٌ أمي
فقد أعطت لغيري قلبها
فعشتُ لا أعرف ما الحنان
ملعونةٌ أمي
ملعونةٌ أمي
ملعونةٌ – لأجلِها – النسوان !

Digitized by Birzeit University Library

متفرقات

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

غزل الفقراء

شعر : « القروي »

من خلل الثوب الذي يفرشه الليلُ على الهضابِ
من خَلَـل السحابِ
لمحتُ وجهَ حلوتي البعيده
تقرأ لي قصيده
فيسقطُ الدمعُ على أبياتها
وتلثمُ الجريده ..

اليومِ ، يا صديقتي البعيده
أشعرُ بارتياحْ
لأنني أدركتُ إن المالَ والثياب
والمصائبَ الحقوده
لن تسرقَ الاحبابْ
من أفئدةِ الأحبابْ
غداً ، اذا ما طلعَ النورُ

Digitized by Birzeit University Library

على أحيائِنا الفقيرةِ السوداءْ
وبدد الظلماءْ
سيمحّي كلُّ رجالِ المالِ والاسماء والالقاب
ونترك العتاب
ونلتقي هناك يا حبيبتي
موعدنا الصباح ..

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

بعد اليأس

نايف سليم

ليس مـــا تنزفـه يا قلمي ... بعض حبر ، انمـا بعض دمي
مـا كتاباتي وأشعاري سوى ... قطع قـــد أفلتت من ألمي
أنا في أرض أجدادي هنـــا ... أي حـــق لي ترى لم يهضم
سرقوا أرضي وأرضوا نفراً ... باع ـ حتى العرض ـ لم يستأثم
وأجـــاعوني وصبّوا سمهم ... في جراحاتي .. فـــلم تلتئم
واستبد الحزن بي حتى غدت ... ضحكتي تجـــرح قلبي وفمي
ومضى عمري سدى ، أيامـــه ... نـــثرت في كل درب معتم
وشبـــابي أذبلت أوراقـــه ... دودة تنهش قلب البرعـــم
أدخلوا اليـأس على قلبي الذي ... كان شعّاعاً كزهر الانجم
ونمـا في ساحتي غرس الأسى ... ودخان الهم أعمى عالمي
لوّعوني .. قلبوا قلبي عـلى ... لاعج مثل السعير المضرم
وأنا في حـــيرة مضنيـة ... من مدى صبري وزيف النظم
هـل سأبقى يائساً مستسلماً ... لقيودي كالحصان الملجم ؟

Digitized by Birzeit University Library

أم سابتز من الليـــل ضحى ودواء من مرار العـــلقم ؟

* * *

هل سيبقى عري طفل جائـع شرط اكليل لرأس المجرم ؟
افقروا الشعب وأغنوا زمراً كـذئاب بطشت بالغـــنم
خنقوا الـــف خميص بائس لمراعـاة بطين متخم
كم أجاعوا عامـلاً في منجم ليزيدوا ربـــح ذاك المنجم
غلظت أوداجهم من طول ما عصروا قلب فقـــير معدم
هل سيبقى العدل مذبوحاً هنا وعلى الصلبان ريح العدم ؟

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library